
أغانى الحياة
ديوان
أبو القاسم الشابى
الكتب الشرقية

أغاني الحياة

ديوان شعر أبي القاسم الشابي

مع ثلاثة رسوم بريشة الفنان حاتم المكي

الطبعة الأولى

ملتزم الطبع والنشر

دار الكتب الشرقية

١٩٥٥

دار مصر للطباعة

٣٦(١) شارع كامل صدقي "الفجالة"

أغاني الحياة

هو ديوان أبي القاسم الشابي نخرجه كما أعدَّهُ ، وعلى الترتيب الذى اختاره له ، فلم نتصرف فيه إلا بإضافة القصائد التالية التى لم يثبتها الشاعر وهى :

« نظرة فى الحياة » ، « أنشودة الرعد » ، « فى الظلام » ، « أيها الليل » ، « شعرى » ، « أيها الحب » ، « أغنية الأحزان » ، « جدول الحب » .

وكان الشاعر يتعهد شعره بالمراجعة من حين لآخر ، فيصلح منه ؛ وسيدرك مدى هذا التنقيح كل من يتسنى له أن يقابل بين ما قد نشر من شعره ، و بين هذا الديوان .

م . أ . ش



أبو القاسم الشابي

إرادة الحياة

إذا الشعب يوماً أراد الحياة　　فلا بدّ أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي　　ولا بدّ للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة　　تبخّر في جوّها، واندثر
فويل لمن لم تشقه الحياة　　من صفعة العدم المنتصر
كذلك قالت لي الكائنات　　وحدثني روحها المستتر

•

ودمدمت الريح بين الفجاج، وفوق الجبال، وتحت الشجر:
«إذا ما طمحت إلى غاية　　ركبت المنى، ونسيت الحذر»
«ولم أتجنّب وعور الشعاب　　ولا كبّة اللهب المستعر»
«ومن لا يحب صعود الجبال
يعش أبد الدهر بين الحفر»
فعجّت بقلبي دماء الشباب　　وضجّت بصدري رياح أخر.
وأطرقت، أصغي لقصف الرعود
وعزف الرياح، ووقع المطر

صفحة بخط المؤلف من أغاني الحياة.

ترجمة المؤلف

بقلم

محمد الأمين الشابي

أبو القاسم الشابي

١٩٠٩ — ١٩٣٤

من أبناء القرن العشرين الذين نشأوا فيما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ، أيام كان العالم العربى يتعثر بين حاضره الأليم وماضيه القريب المنقوص ، ودعاة الإصلاح وأنصار الجديد فى تلك الفترة الانتقالية ، إنما يلقون جحوداً وأذى لا تزيدهما سيطرة الغرب على الشرق ، وشموخه بحضارته ، ووثوقه بمصيره ، إلا احتداما وسطورة لدى فريق واسع من الخاصة والعامة على السواء .

بيد أن الشاعر لم يتردد كثيراً حتى عرف سربه فانضم إليه ، ثم صدح محلقا إلى أن اختطفته يد المنون وهو فى ريعان الشباب .

* * *

كان والده[1] من خريجى الأزهر ومن مجازيه ، وبه درس أولاً ، فأقام بمصر فى أوائل هذا القرن سبع سنين ، ثم درس بتونس بجامع الزيتونة سنتين ، حصل بعدهما على « التطويع[2] » ، ثم سمى قاضياً شرعياً لسنة من ولادة بكره أبى القاسم فتصرف فى قضاء كثير من البلدان التونسية .

كان يقضى يومه بين المحكمة والمسجد والمنزل حيث يتبسط مع أهله ، ولقد نشأ أبو القاسم فى سنى تكوينه الفكرى والخلقى فى كنف رعايته الصالحة يقتبس من علمه وآدابه .

---

(١) هو المرحوم الشيخ محمد بن بلقاسم الشابى سليل أسرة « الشابية » التى تمحضت للعلم بعد أن أنجبته فى القرنين العاشر والحادى عشر هـ . من حملة القلم والسيف من اكتسبت بمساعيهم مجداً سجله التاريخ التونسى .

(٢) هى إجازة نهاية الدراسة بالكلية الزيتونية فى ذلك العصر .

كان رحمه الله صادق التقى ، قوىّ العقيدة لا يخشى فى الحق لومة لائم ، له غيرة على شئون المسلمين والاسـلام ، تنفعل بما يجرى آنذاك من أحداث بالشرق العربى وطرابلس الغرب أو بلاد الريف .

قال الشاعر متحدثا عن أبيه : « إنه أفهمنى معانى الرحمة والحنان ، وعلمنى أن الحق خير مافى هذا العالم وأقدس ما فى هذا الوجود[1] » .

* * *

لم ينشأ أبو القاسم بمسقط رأسه ، فقـد خرج عنه فى سنته الأولى ولم يـكد يعرفه إلا قليلا ، أثناء قدمتين قَدْمَتَيْن أقام فيهما نحوا من ثلاثة أشهر ، الأولى عند ختانه فى الخامسة من عمره ، والثـانية زائرا ، وقد استغرقت جولة الأسرة عشرين سنة ضربت فى بحرها بالبلاد التونسية طولاً وعرضاً ، متنقلة من قابس إلى سليانة فتالة ، ومن مجاز الباب إلى رأس الجبل فزغوان . وبين هذه المـدن من الأميال ما يقدر بالمئات أحيانا ، وعلى نسبة ذلك اختلافُ العادات واللهجات والمشاهد الطبيعية . فلم تـكن واحة قابس كبسائط مجاز الباب يغمرها الحصيـد ، ولا هذه كبساتين رأس الجبل أو كجبل زغوان يكسوه شجر الصنوبر ، ولم يكن حرُّ قابس كثلوج تالة ، ولا حياة الفلاحين بمجاز الباب كحياة صيادى البحر بقابس أو رأس الجبل ، ولا طباعُ أهل الشمال كطباع أهل الجنوب .

هذه مراحل أبى القاسم وشبابه عملت على تضخم تجربته وتدفق شاعريته وازدهار ريشته ، بيد أن الشاعر أفاد ما يفيده كل عابر سبيل متيقظ واع ، إذا مااستقر بأرض كان ربيبها لا ابنها الأصيل . فأطلقه هذا المصير من حدود البيئة الضيقة وأكسبه « تونسية » إنسانية الآفاق .

* * *

---

(١) كتاب « الخيال الشعرى عند العرب » صفحة الإهداء ــ وقد أهداه لوالده.

قدم أبو القاسم إلى العاصمة سنة ١٣٣٩ هـ - ١٩٢٠ م للدراسة بجامع الزيتونة في الثانية عشرة من عمره ، وقد تكوّن سريعاً ، وقال الشعر باكرا [١] . كوّن نفسه ثقافة واسعة عربية محضة جمعت بين التراث العربي في أزهى عصوره و بين روائع الأدب الحديث بمصر والعراق وسوريا والمهجر ، ولم يكن يعرف لغة أجنبية ، فتمكن بفضل مطالعاته الواسعة من استيعاب ما تنشره المطابع العربية عن آداب الغرب وحضارته . وكانت أول نشراته في الصفحة الأدبية التي كانت ترتبها « النهضة » كل اثنين — سنة ١٣٤٢ — ١٩٢٦ م وفي سنة ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٧ م . ظهر شعره مجموعا في المجلد الأول من كتاب « الأدب التونسي في القرن الرابع عشر » [٢] وفي نفس السنة ألقى بنادي قدماء الصادقية محاضرة حول « الخيال الشعري عند العرب » كانت مادة الكتاب الذي نشر بنفس العنوان في السنة التالية .

وإنك لتجده وهو يواصل دراسته ويضع شعره في صميم حركات الإصلاح التي كانت تعتلج بها النفوس آنذاك من بعث لحركة الشبان المسلمين ودعوة لتجديد الجهاز

(١) قصيدة (ياحب) التي أثبتناها بالديوان ، نظمها سنة ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٣ م .
وقد وصف صديقه الأستاذ زين العابدين السنوسي طريقته في وضع قصائده ، فقال :
(إذا رجعنا إلى أدبائنا المعاصرين عرفنا أن المرحوم أبا القاسم الشابي لم يكن يستنزل الشعر ولكنه كان يفيض عليه مهاجمة تمنعه الراحة والنوم ، فيصوغ القصيدة بيتاً بيتاً ويتهجى كل واحدة بمفردها في ليله وظلامه الدامس ولا تفارقه تلك الحال حتى يستفرغ ماجاش بضميره شعراً محكما . ثم ينام مطمئناً كأنما نزع عن ظهره عبئا ،حتى إذا استيقظ في الغد متأخراً وجدها على طرف لسانه ونسخها عن ذاكرته مطمئنا ، وربما طاش عنه الشطر فلا يرضى أن يعوضه أبداً ، وتبقى القصيدة بتراء في جيبه يقرؤها علينا بتراء لايجسر على ترقيعها أبداً . إلا أن يتذكرها ولو بعد أشهر فيتمها وينسخها في كناشة).
(٢) تأليف الأستاذين زين العابدين السنوسي (أنظر الجزء الأول من صفحة ٢٠٣ حتى صفحة ٢٥٤)

الثقافى التقليدى ، ومناصرةٍ لحركة تحرير المرأة[1] ودعوةٍ للتجديد فى الأدب تحتل المكان الأول من نفسه وقد أحدث كتابه « الخيال الشعرى » الضجة الكبرى واستهدف الشاعر بسببه لحملة صحفية عنيفة ثبت لها ثبات الرائد المؤمن بما يقول .

نشرت هذه الآثار فى حياة والده ، فلم ينكر عليه مذهبه ، ووجد الشاعر فى تسامح أبيه ما يعزز جانبه ويثبت خطاه .

وفى هذه الأثناء (سنة ١٩٢٩) نكب بوفاة والده المحبوب ، ولقد رافقه عليلا من بلد «زغوان» إلى « توزر » مسقط رأسه ، وتجرع غصص مرضه ، وطفحت الكأس بموته وهو فى العشرين من عمره ، فاضطلع بأعباء عائلة كبيرة واختار طريقاً وعراً ، فإنه - ضنًّا بحرية الأديب والشاعر - لم يلج باب الارتزاق من المناصب الحكومية ورضى بحياة بسيطة على رأس أسرته بتوزر حيث تزوج ، ولعل هذا الذى عناه بعضهم حين قال : « كنا نرى فى نفسه الزكية مثال القناعة فى أفضل ألوانها والطموح على خير وجوهه[2] » .

وفى السنة نفسها أصيب بداء تضخم القلب ، وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، بيد أنه رغم نهى الطبيب لم يقلع عن عمله الفكرى وواصل إنتاجه نثراً وشعراً . وقد نشرت له سنة ١٩٣٣ بمجلة « أبولو » المصرية قصائد عملت على التعريف به فى الأوساط الأدبية بالشرق العربى ، وإلى أبى القاسم أوكل صديقه الدكتور أحمد زكى أبو شادى تصدير ديوانه « الينبوع » .

لم يكن الشاعر المريض يغادر « توزر » إلا فى الصيف ويقصد المصطافات الجبلية كعين دراهم بالشمال التونسى سنة ١٩٣٢ ، والمشروحة ببلاد الجزائر سنة ١٩٣٣ ،

(١) ناصر الشاعر صديقه المغفور له الطاهر الحداد واضع كتاب « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » الذى أثار ردوداً حارة وسخطا عنيفا .

(٢) مجلة « العالم الأدبى » (شعبان سنة ١٣٥٣ - نوفمبر سنة ١٩٣٤)

وشرع أثناء مصيف سنة ١٩٣٤ فى جمع ديوانه « أغانىّ الحياة » بنية طبعه بمصر[1] فانتسخه بنفسه بحامة الجريد ، مستعيناً ببعض أدبائها ، لكن باغتته المنية وحالت دون ماالوى . فقد انتابه المرض بغاية الشدة وقصد «تونس» يوم ٢٦ من أغسطس سنة ١٩٣٤ وبها توفى[2] سحراً يوم ٩ من أكتوبر سنة ١٩٣٤، ثم نقل جثمانه إلى بلده « توزر » حيث قبره .

* * *

نحيف الجسم ، مديد القامة ، قوىّ البديهة ، سريع الانفعال ، حادّ الذهن تكفكف رقة طبعه من غرب عاطفته وحدة ذهنه يراه أصدقاؤه «بشوشاً، كريماً ، وديعاً ، متأنقاً ، طروبا لمجالس الأدب يحب الفكاهة الأدبية »[3] ويراه من لم يخالطه حيياً محتشما ويعرف منه هؤلاء وأولئك صراحة حازمة قوية يبديها لخاصة خلطائه فى غير ماتحرج متى اجتمع بهم ويجاهر بها العموم فى شعره ونثره . وكان محباً لبلاده ، صادق الوطنية[4] يؤمن بأن لقادة الفكر رسالة إنسانية سليمة حاول جهده أن يحققها فى أثناء حياته القصيرة قولا وعملا

تونس فى ١٢ من افريل سنة ١٩٥٤ — م أ سمو

---

(١) حيث تطوع الأستاذ أبو شادى للاشراف على طبعه

(٢) بالمستشفى الإيطالى « القديم » بحى « مونفلورى »

(٣) العالم الأدبى ديسمبر ١٩٣٤ بقلم المغفور له البشير الفورتى عميد الصحفيين التونسيين .

(٤) أبنه فى ذكراه الأربعينية المرحوم الطاهر صفر أحد قادة الحركة الوطنية الممتازين إذ ذاك وأحد أعضاء الديوان السياسى للحزب الحر الدستورى التونسى بما خلاصته: (تكلم الأستاذ صفر نيابة عن قدماء الصادقية على شاعرنا الفقيد فأكبر روحه الأدبية ونبوغه الشعرى وأشار إلى الناحية الوطنية والإحساس الفياض الذى كان الشاعر يفيض به عن آمال بلاده وآلامها ، وقد ذكر الخطيب أنه اجتمع مع فقيدنا الشابى فى بلدة طبرقة حينما كان الشاعر فى حال شديدة من الألم، وقد دار إذ ذاك الحديث بين الشاعر والزعيم فى الوطنية عما يؤمله للشعب التونسى من التقدم ورثى الشاعر لحال الشعب الآن ، وقد عبر عن ذلك فى قطعة شعرية وطنية نشرتها جريدة «العمل» بعدد(٢٢)«العالم الأدبى» فى ديسمبر سنة ١٩٣٤

مِنْ وَرَاءِ الظَّلَامْ

ضيّع الدّهر مجدَ شعبي ، ولكن ستردُّ الحيـــــاةُ يوما وِشاحهْ
إنّ ذا عصرُ ظلمةٍ ، غير أنِّى من وراء الظلام شِمْتُ صَبَاحَهْ

هذان البيتان استبقاهما الشاعر لهذا الديوان من قصيدة نظمها فى ذى القعدة سنة ١٣٤٣،
وإلى القارىء نصها بعنوانها كما وجدناه فى مسودات الشاعر :

تونسُ الجميلةُ

لستُ أبكى لعسفِ ليلٍ طويل ، أو لربعٍ غدا العفاءُ مراحهْ
إنما عَبرتى لخطبٍ ثقيلٍ ، قد عرانا ، ولم نجد من أزاحهْ
كلّما قام فى البـلاد خطيبٌ موقظٌ شعبَه يريد صلاحَهْ
أخمدوا صوتَه الإلهىَّ بالعسـفِ ، أماتوا صُدَاحه ونُواحهْ
ألبسوا روحَه قميصَ اضطهادٍ فاتكٍ شـائكٍ يردُّ جِماحَهْ
وتوخَّوْا طرائق العَسف والإر هاق تَوًّا ، وما توخَّوْا سَماحَهْ
هكذا المخلصون فى كل صوبٍ رشقاتُ الرَّدى إليهم مُتَاحهْ
غير أنّا تناوبتنا الرَّزايا واستباحتْ حمانا أىَّ استباحهْ

* * *

أنا يا تونس الجميلةُ فى لجِّ الهوى قد سبحت أىَّ سباحه

شِرْعَتِي حُبُّكِ العَمِيقُ وإنِّي قد تذوَّقْتُ مُرَّه وقَراحَهْ
لستُ أنصاعُ لِلَّواحي ولو مُتُّ وقامتْ على شبابي المنَاحهْ
لا أبالي . . . وإنْ أُرِيقَتْ دِمائي فدِمَاءُ العشاقِ دَوْمًا مُباحهْ
وبطول المدى تُرِيكِ الليالي صادقَ الحبِّ والوَلاَ وسَجاحهْ
إنْ ذا عصرُ ظلمةٍ غير أنِّي من وراءِ الظلامِ شِمتُ صَبَاحهْ
ضَيَّعَ الدهرُ مَجْدَ شعبي ولكنْ ستردُّ الحياةُ يومًا وِشاحهْ

مِنْ حَدِيثِ الشُّيُوخِ

ألاَ إنَّ أحلامَ الشَّبابِ ضئيلةٌ تحطِّمها مثلَ الغصونِ المصائبُ
سألتُ الدَّياجي عن أماني شبيبتي فقالت : « ترامَتْها الرِّياحُ الجوائبُ »
ولما سألتُ الريحَ عنها أجابني : « تلقَّفها سيلُ القَضا ، والنوائبُ »
« فصارت عفاءً ، واضمحلَّت كذرَّةٍ على الشاطئِ المحموم ، والموجُ صاخبُ »

خُلِقَ لِلْمَوْتِ

كلُّ قلبٍ حملَ الخسفَ ، وما ملَّ من ذلِّ الحياةِ الأرْذلِ
كلُّ شعبٍ قد طغت فيه الدمَا دونَ أنْ يثأرَ للحقِّ الجلي
خلِّه للموتِ يطويهِ . . فما حظِّهِ غيرُ الفناءِ الأنكلِ

الحياة

إن هذي الحياةَ قيثارةُ الله ، وأهلُ الحياة مثل الأُحونِ
نَغَمٌ يَسْتَبِي المشاعر كالسحر ، وصوتٌ يُخِلُّ بالتّلحينِ
واللّيالي مغاورٌ ، تُلْحِدُ اللّحن وتقضِي على الصَّدى المسكينِ

نظرة في الحياة

إن الحياة صِراعٌ فيها الضعيف يُداسْ
ما فاز في ماضغيها إلا شديد المراسْ
للخِبِّ فيها شجونٌ فكن فتى الاحتراسْ
الكونُ كونُ شقاء الكون كون التباسْ
الكون كون اختلاقٍ وضجّة واختلاسْ
سيان عندي فيه السرور ، والابتئاسْ

* * *

بين النوائب بونٌ للناس فيه مزايا
البعض لم يدر إلا البلى ينادى البلايا
والبعض ماذاق منها سوى حقير الرزايا

إن الحيـــــاة سُباتٌ سينقضى بالمنـــــايا
وما الرُّؤى فيـه إلا آمالنـــــا ، والخطايا
فإن تيقظ كانت بين الجفـون بقـــايا

* * *

إن السكينة رُوح فى الليل ليست تُضامْ
والرُّوح شـعلة نور من فوق كل نظامْ
لا تنطفى برياح الـ ـإرهاق أو بالحسامْ
بل قد يمج لظاهـا سيلاً ، ويطغى الضِّرامْ
كل البلايا . . . جميعا تفنى ويحيا السلامْ !
والذل سـبة عار لا يرتضيه الكرام !

* * *

الفجر يسطع بعد الـ ـدجى ، ويأتى الضياء
ويرقد الليـل قسراً على مِهـاد العفـاء
وللشعـــوب حيـاة حينا وحينا فنـاء
واليأس موت ولكن موت يثير الشقـاء
والجِدُّ للشـعب روح توحى إليه الهنـاء
فإن تولَّتْ تصدَّت حياته للبـــلاء

غرفة منيم

ضعفُ العزيمة لَحْدٌ ، فى سكينته ... تقضى الحياةُ ، بَنَاهُ اليأسُ والوجَلُ
وفى العزيمة قوّاتٌ ، مُسَخَّرةٌ ... يخِرُّ دون مداها الشامخُ الجبَلُ
والناس شخصان : ذا يسعى به قَدَمٌ ... من القنوطِ ، وذا يسمَى به الأملُ
هذا إلى الموت ، والأجداث ساخرةٌ ، ... وذا إلى المجد ، والدُّنيا لَهُ خَوَلُ
ما كلُّ فعل يُجِلُّ النّاسُ فَاعِلَه ... مجدًا ، فإنّ الورى فى رأيهم خطَلُ
ففى التماجد تمويهٌ ، وشعوذَةٌ ، ... وفى الحقيقة مالا يدركُ الدَّجَلُ
ما المجدُ إلاّ ابتسامات يفيض بها ... فمُ الزمان ، إذا ما انسدَّتِ الحِيَلُ
وليس بالمَجد ما تشقى الحياة به ... فيحسدُ اليومُ أمسًا ، ضمّه الأزَلُ
فما الحروب سوى وحْشيَّةٍ ، نهضتْ ... فى أنفُسِ الناسِ ، فانقادتْ لها الدولُ
وأيقظت فى قلوب الناسِ عاصفةً ... غام الوجودُ لِهَلِها ، وارْبَدَّت السُّبلُ
فالدّهر منتعلٌ بالنارِ ، ملتحفٌ ... بالهَولِ ، والويْلِ ، والأيامُ تشْتَعِلُ
والأرض داميَةٌ ، بالإثم طامية ، ... ومارِدُ الشرِّ فى أرجائها ثَمِلُ
والموْتُ كالمارد الجبّار ، منتصِبٌ ... فى الأرض ، يخطف من قد خانه الأجلُ
وفى المهامه أشلاء ، ممزَّقَةٌ ... تتلو على القفر شعرًا ، ليس ينْتَحَلُ

أنشودة الرعد

في سكون الليل لما عانق الكونَ الخشوع
واختفى صوت الأماني خلف آفاق الهجوع

* * *

رتّل الرعد نشيداً ردّدته الكائنات
مثل صوت الحق إن صا ح بأعماق الحياة

* * *

يتهادى بضجيج في خلايا الأودية
مثل جبّار بنى الجنّ بأقصى الهاوية

* * *

فسألتُ الليل ، والليـ ل كئيبٌ ، ورهيبْ
شاخصاً بالليل والليـ ل جميلٌ ، وغريبْ

* * *

« أترى أنشودة الرعـ د أنينٌ وحنينْ
رنّمتها بخشوع مهجة الكون الحزين ؟

* * *

أم هي القوة تسعى باعتساف واصطخاب
يتراءى في ثنايا صوتها روح العذاب ؟ »

* * *

غير أن الليل قد ظـ لّ رَكُودًا ، جامدًا
صامتاً مثل غدير الـ قفر ، من دون صدى !

في الظلام

رفرفت في دُجية الليل الحزين رُمرةُ الأحلامْ
فوق سرب من غمامات الشجون ملؤها الآلام

* * *

شخَصت ، لما رأت ، عينُ النجوم بمئة العُشّاق
ورمتْها من سماها برجُوم تسكب الأحراق

* * *

كنت إذْذاك على ثوب السكون أنثر الأحزانْ
والهوى يسكب أصداء المنون في فؤادٍ فانْ

* * *

ساكتاً مثل جميع الكائناتْ راكدَ الألحان
هائمٌ قلبي بأعماق الحياة تائهٌ ، حيران

* * *

إنّ للحب على الناس يدًا تقصف الأعمار
وله فجرٌ على طول المدى ساطعَ الأنوار

* * *

ثورةُ الشر ، وأحلامُ السلام ، وجمالُ النور
وابتسامُ الفجر في حزن الظلام ، في العيون الحور

مأتم الحب

ليت شعرى !

أىُّ طيرِ

يسمع الأحزان تبكى بين أعماق القلوب

ثم لا يهتف فى الفجر ، برنّات النحيب

بخشوع ، واكتئاب ؟

* * *

لست أدرى

أىُّ أمرِ

أخرس العصفور عنّى ، أترى مات الشعورْ

فى جميع الكون ، حتى فى حُشاشاتِ الطيورْ ؟

أم بكى خلف السحاب ؟

* * *

فى الدياجى

كم أناجى

مَسْمَعَ القبرِ ، بغصّات نحيبى ، وشجونى

ثم أصغى ، علّنى أسمع ترديد أنينى

فأرى صوتى فريد !

* * *

فأنـــــادى :

« يا فـــؤادى »

« مات من تهوى ! وهذا اللحد قد ضمّ الحبيب »

« فابكِ يا قلب بما فيك من الحزن المذيب »

« ابكِ يا قلب ، وحيد ! »

* * *

ذلّ قلـــبى ،

مات حـــبّى !

فاذرفى يا مقلةَ الليل ، الدرارِى عـــبرات

حول حبّى ، فهو قد ودّع آفاق الحيـــاة

بعد أن ذاق اللهيب

* * *

واندبيـــــه ،

واغسليـــــه ،

بدموع الفجر ، من أكواب زهر الزّنبَق

وادفنـــيه بجلال ، فى ضفاف الشفق

ليرى روح الحبيب

* * *

الكآبة المجهولة

أنا كئيب ،
أنا غـــريب ،

كآبتي خالفت نظائرها
غريبةٌ في عوالم الحزَن
كآبتي فكرةٌ مُفَرَّدةٌ
مجهولةٌ من مسامع الزمن

لكنني قد سمعت رنتها
بمهجتي ، في شبابيَ الثمل
سمعتُها ، فانصرفتُ مكتئبا
أشدو بحُزني ، كطائر الجبل

سمعتهـــا أنّةً يرجِّعُها
صوتُ الليالي،ومهجةُ الأزل
سمعتها صرخةً مضَغضَغَةً
بجدولٍ في مضايق السبل

ضمتها رنةٌ ، يمازجها

شوقٌ إلى عالم يضعضعها

ضعيفةٌ مثل أنة صعدتْ

من مهجةٍ هدّها توجّعها

كآبةُ الناس شعلةٌ ، ومتى

مرّت ليالٍ خبتْ مع الأمد

أمّا اكتئابي فلوعةٌ سكنتْ

روحي ، وتبقى بها إلى الأبد

* * *

أنا كئيب ، أنا غريب ،

وليس في عالم الكآبة منْ

يحملُ معشارَ بعضِ ما أجدُ

كآبتي مُرّةٌ ، وإن صرختْ

روحي فلا يسمعُها الجسد

كآبتي ذات قسوةٍ صهرت

مشاعري في جهنّمِ الألمِ

لم يسمع الدّهرُ مثل قسوتها

في يقظة قط ، لا ، ولا حلمِ

كآبتي شعلةٌ مؤججة ،
تحت رماد السكون تستعر
سيعلم السكونُ ما حقيقتها
ويطلع الفجر يوم تنفجر .

* * *

كآبةُ الناس شعلةٌ ، ومتى
مرّت ليالٍ خبت مع الأمد
أما كآبتي فلوعةٌ ، سكنت
روحي ، وتبقى بها إلى الأبد

أيها الليل

أيها الليل ! يا أبا البؤس والأهوا ل ، ! يا هيكل الحياة الرهيب !
فيك تجثو عرائس الأمل العذ ب ، تصلّي بصوتها المحبوب
فيثير النشيدُ ذكرى حياة حجبتها غيوم دهر كئيب
وترف الشجون من حول قلبي بسكون ، وهيبة ، وقطوب
أنت ياليل ! ذرّةٌ ، صعدت للسكون ، من موطىء الجحيم الغضوب
أيها الليل ! أنت نغم شجيٌ فى شفاه الدهور ، بين النحيب
إن أنشودة السكون ، التى ترتج ، فى صدرك الركود ، الرحيب
تُسمع النفسَ ، فى هدوء الأمانى رنةَ الحق ، والجمال الخلوب
فتصوغ القلوبُ ، منها أغاريداً ، تهز الحياة هز الخطوب
تتلوّى الحياة ، من ألم البؤ ، فتبكى ، بلوعة ونحيب
وعلى مسمعيك ، تنهلّ نوحا وعويلا مُرًّا ، شجونُ القلوب
فأرى برقها شفيفا ، من الأو جاع ، يُلقى عليك شجو الكئيب
وأرى فى السكون أجنحة الجبار ، مخضلةً بدمع القلوب
فلك الله ! من فؤاد رحيم ولك الله ! من فؤاد كئيب
يهجع الكون ، فى طمأنينة العصفور ، طفلا بصدرك الغربيب
وبأحضانك الرحيمة يستيقظ ، فى نضرة الضحوك ، الطروب

شادياً ، كالطيور بالأمل العــذ ب ، جميلاً ، كبهجة الشؤبوب
يا ظلام الحياة ! ياروعة الحزن ! ويامعزف التعيس الغريب
إن فى قلبك الكئيب ، لمرتاداً لأحلام كل قلب كئيب
وبقيثارة السكينة ، فى كفيك ، تنهل رنة المكروب
فيك تنمو زنابق الحلم العــذ ب ، وتذوى لدى لهيب الخطوب
خلف أعماقك الكئيبة تنسا ب ظلال الدهور ، ذات قطوب
وبفوديك ، فى ضفائرك الســـودِ ، تدب الأيام أى دبيب

* * *

صاح ! إن الحياة أنشودة الحز ن ، فرتل على الحياة نحيبى
إن كأس الحياة مترعة بالدمـ ـع ، فاسكب على الصباح حبيبى
إن وادى الظلام يطفح بالهو ل ، فما أبعد ابتسام القلوب !
لا يغرنك ابتسام بنى الأر ض فخلف الشعاع لذع اللهيب
أنت تدرى أن الحياة قطو ب وخطوب ، فما حياة القطوب ؟
إن فى غيبـــة الليالى ، تباعا لخطيب يمر إثر خطوب

* * *

سددت فى سكينة السكون ، للأعما ق ، نفسى لحظا بعيد الرسوب
نظرة مزقت شــــفاف الليا لى فرأت مهجة الظلام الهيوب
ورأت فى صميمها ، لوعة الحز ن ، وأصغت إلى صراخ القلوب
لا تحاول أن تنكر الشجو ، إنى قد خبرت الحياة خبر لبيب

فتبرمت بالسكينة والضجـ ـة ، بل قد كرهتُ فيها نصيبي ...
لكن كما شاءت السماء كئيباً أىُّ شىء يسر نفس الأريب ؟
أنفوسٌ تموت ، شاخصةً بالهو ل ، فى ظلمة القنوط العصيب ؟
أم قلوبٌ محطاتٌ على ساحل لُـ ـجِّ الأسى ، بموج الخطوب ؟
إنما الناس فى الحياة طيورٌ قد رماها القضا بواد رهيب
يعصف الهولُ فى جوانبه السو دِ فيقضى على صَدَى العندليب

* * *

قد سألتُ الحياة عن نغمة الفـ ـجر ، وعن وَجْمة المساء القطوب
فسمعتُ الحياة ، فى هيكل الأحزا ن ، تشدو بلحنها المحبوب .
ما سكوتُ السماء إلا وجومٌ ما نشيد الصباح غير نحيب .
ليس فى الدهر طائرٌ يتغنى فى ضفاف الحياة غيرَ كئيب
خضَّب الاكتئاب أجنحة الأيا مِ ، بالدمع ، والدم الأسكوب
وعجيبٌ أن يفرح الناس فى كـ ـهف الليالى ، بحزنها المشبوب !

* * *

كنت أرنو إلى الحياة بلحظٍ باسمٍ ، والرجاء دون لغوب
ذاك عهد حسبته بسمة الـ ـفجر ، ولكنه شعاع الغروب
ذاك عهد ، كأنهُ رنَّة الأفرا ح ، تنساب من فم العندليب
خفقت — ريثما أصختُ لها بالقلـ ـب ، حينا — وبُدِّلَت بنحيب

إن خمر الحياة وردية اللون ، ولـكنها سمام القلوب

* * *

جرفت من قرارة القلب أحلا مى ، إلى اللحد ، جائرات الخطوب

فتلاشت على تخوم الليـالى وتهاوت إلى الجحيم الغضوب

وثوى فى دُجُنّة النفس ، ومضٌ لم يزل بين جَيْئَةٍ ، وذُهوب

ذِكرياتٌ تميس فى ظُلمة النفـــس ، خيالا ، كرائعات المشيب

* * *

يالقلب تجرع الاوعة المر ة من جدول الزمان الرهيب !

ومضت فى صميمه شُعْلَةُ الحز ن ، فَمَشَّتْهُ من شعاع اللهيب ...

شكوى اليتيم

على ساحل البحر، أنّى يضجّ　　صراخُ الصباحِ ونوحَ المسا
تنهّدتُ، من مهجةٍ أترعت　　بدمع الشقاء وشوك الأسى

فضاع التنهّدَ فى الضجّة
بما فى ثناياه من لوعة
فسرتُ وناديتُ : « ياأمُّ ا هيّا
إلىّ ا فقد سئمتنى الحياة »

وجئت إلى الغاب، أسكبُ أوجاعَ قلبي نحيباً، كلفح اللهيبْ
نحيباً تدافع فى مهجتى، وسالَ يرنُّ بندب القلوب

فلم يفهم الغابُ أشجانَهُ
وظلَّ يُرَدِّد ألحــــانَهُ
فسرتُ وناديْتُ : ياأمُّ هيّا
إلىّ ا فقد عذبتنى الحياة »

وقفتُ على النّهر، أهرق دمعًا　　تفجّر من فيض حزني الأليمْ
يسيرُ بصمتٍ على وجنتىَّ　　ويلمع مثل دموع الجحيم

فما غفّفَ النهرُ من حدْوِه
ولا سكت النهرُ عن شدْوِه

فسرتُ، وناديتُ: « يا أمّ اهيّا
إليّ ! فقد أضجرتني الحياة »

* * *

ولمّا ندبتُ ولم ينفعِ
وناديتُ أمّي فلم تسمعِ
رجعتُ بحزني إلى وحدتي
وردّدتُ نوحي على مسمعي
وعانقتُ في وحدتي لوعتي
وقلت لنفسي: «ألا فاسكتي ! »

الزنبقة الذاوية

أزَنبقةَ السفح ؟ مالى أراكِ تعانقكِ اللوعةُ القاسيهْ ؟
أفى قلبكِ الغضّ صوتُ اللهيب ، يرتّلُ أنشودة الهاويهْ ؟
أأسمعكِ الليلُ ندبَ القلوب   أأرشفكِ الفجرُ كأسَ الأسى؟
أصبّ عليكِ شعاعُ الغروب   نجيعَ الحياة ، ودمعَ المسا
أأوقفكِ الدهرُ حيث يُفجّ   رُنوحُ الحياة صُدوعَ الصدورْ؟
وَيفَيْتِقُ الليل طيفاً ، كئيباً   رهيباً ، ويخفقُ حزنُ الدهورْ؟

***

إذا أضجرتكِ أغانى الظلامِ   فقد عذّبتنى أغانى الوجومْ
وإن هجرتكِ بناتُ الغيوم ، فقد عانقتنى بنات الجحيم
وإن سكب الدهر فى مِسمعيْكِ نحيبَ الدجى ، وأنينَ الأملْ
فقد أجّج الدهر فى مهجتى   شُواظاً من الحَزَن المشتعل
وإن أرشفتكِ شفاهُ الحياة   رُضابَ الأسى ، ورحيقَ الألمْ
فإنّى تجرّعتُ من كفها   كُؤوساً ، مؤجّجَة ، تضطرم

***

أصيخى ! فما بين أعشار قلبى   يرفّ صدى نوحكِ الخافتِ

معيداً على مهجتى بحفيف جناحيه صوتَ الأسى الماثت

وقد أترع الليلُ بالحب كأسى وشعشها بلهيب الحياهْ

وجرّ عنى من ثمالاته مرارةَ حزنٍ ، تذيب الصفاهْ

إلىّ ! فقد وحّدت بيننا وقساوةُ هذا الزمان الظلومْ

فقد فجّرتْ فىّ هذى الكلومَ كما فجّرت فيكِ تلك الكلوم

* * *

وإن جرفتنى أكفُّ المنون إلى اللحْد ، سحقتكِ الخطوبْ

فحزنى وحزنكِ لا يبرحانِ أليفْينِ رغم الزمان المصيب

وتحتَ رواق الظلام الكئيب إذا شمل الكونَ روحُ السحَرْ

سيُسمَع صوتٌ ، كلحن شجىّ تطايرَ من خَفقَات الوتر

يردِّدُه حُزنُنا فى سكونٍ على قبرنا ، الصامتِ المطمئنْ

فنرقُد تحت التراب الأصمّ جميعًا على نغمات الحزَنْ

شِعري

شعري نُفَاثة صدري   إن جاش فيه شعوري
لولاه ماانجاب عني   غيمُ الحياة الخطير
ولا وجدتَ اكتئابي   ولا وجدتَ سروري
به تراني حزيناً   أبكي بدمعٍ غزير
به تراني طروباً   أجرّ ذيلَ حُبوري

* * *

لا أنظم الشعرَ أرجو   به رضاء الأميرْ
بمدحة أو رثاء   تُهْدَى لرب السرير
حسبي إذا قلتُ شعراً   أن يرتضيه ضميري

* * *

ما الشعر إلا فضاء   يَرِفُّ فيه مقالي
فيما يسرّ بلادي   وما يسرُّ المعالي
وما يثير شعوري   من خافقات خيالي

* * *

لا أقرض الشعر أبغي   به اقتناص نوال
الشعر إن لم يكن في   جماله ذا جلال

فإنمـــا هو طيف يَمْشى بوادى الظّلال
يقضى الحياة طريداً في ذِلة ، واعـتزال

* * *

ياشـعر ! أنت مِلاكى وطارِفى ، وتِلادى
أنا إليـــك مُراد . وأنت نعم مرادى
قف ، لاتَدَعْنِي وحيدًا ولا أدعك تنـادى
فهل وجدت حُساما يُناط دون نجاد

* * *

كم حطّم الدهرُ ذا هِمّةٍ كثيرَ الرّياد
ألقاه تحت نعـالٍ من ذلّة وحـداد
رفقاً بأهل بلادِى ! يامنجنون العوادى !

ياشعر

ياشعرُ أنتَ فمُ الشعور ، وصرخةُ الروح الكئيبْ
ياشعر أنت صدى نحيب القلب ، والصّب الغريب

ياشعر أنت مدامعٌ علِقتْ بأهداب الحياة
ياشعر أنت دمٌ ، تفجّر من كلوم الكائنات

ياشعر ! قلبي — مثلما تدرى — شقيٌّ ، مظلمُ
فيه الجراحُ ، النجلُ ، يقطر من مغاورها الدمُ

جمدت على شفتيه أرزاء الحيـاة العابسه
فهو التعيسُ ، يُذيبه نوح القلوب البائسهْ

أبداً ينوح بحرقةٍ ، بين الأمانى الهاويهْ
كالبلبل الفرِّيد ما بين الزهور الذاويهْ

كمْ قد نصحتُ له بأن يسلو ، وكمْ عزّيتُه
فأبى ، وما أصغى إلى قولى ، فما أجْديته

كم قلت : « صبرًا يافؤادُ ! ألا تَكُفُّ عن النحيبْ ؟ »
« فإذا تجلّدت الحياةُ تبدّدتْ شُعَلُ اللهيب »

« ياقلب ! لا تجزع أمامَ تصلُّبِ الدهر المصورْ »
« فإذا صرختَ توجُّعا هزئت بصرختكَ الدهــورْ »

« ياقلب ! لا تسخط على الأيام ، فالزهر البديعْ »
« يصمى لضجات العواصف قبل أنغـام الربيع »

« ياقلب ! لا تقنع بشوك اليأس من بين الزهورْ »
« فوراء أوجاع الحيـاة عــذوبةُ الأمل الجسور »

« ياقلب ! لا تسكبْ دموعَكَ بالفضـاء فتندمِ »
« فعلى ابتسامات الفضــــاء قساوةُ المتهكمِ »

لـكنَّ قلبي وهو — مُخْضلُ الجوانب بالدموعْ —
جاشتْ به الأحزانُ ، إذا طفحت بها تلك الصدوع

يبكي على الحـــلم البعيد بلوعةٍ ، لا تنجلى
غردًا ، كصَدَّاح الهواتف فى الفلا ، ويقول لى :-

« طهِّرْ كلومكَ بالدموع ، وخلِّها ، وسبيلَها »
« إن المدافع لا تضيع حقـيرها وجليلها »

« فَمِنَ المدامع ماتدفَّعَ جارفًا حَسَكَ الحياة »
« يرمى لهـاوية الوجود بكل مايبنى الطغاة »

« ومن المدامع ما تألق في الغياهب كالنجوم »

« ومن المدامع ما أراح النفس من عبء الهموم »

فارحم تعاسته ، ونُحْ معه على أحلامِـــهِ

فلقد قضى الحـــلمُ البديعُ على لظى آلامِهِ

يا شعر ! يا وحْيَ الوجودِ الحيّ ، يالُغةَ الملائكْ

غرِّدْ ، فأيّامي أنا تبكي على إيقاع نائكْ

ردِّدْ على سمع الدجى أناتِ قلبي الواهيهْ

واسكب بأجفان الزهـــور دموعَ قلبي الداميهْ

فلعلّ قلب الليل أرحم بالقـــلوب الباكية

ولعلّ جفن الزهر أحفـــظ للدموع الجاريهْ

كم حرّكت كفُّ الأسى أوتارَ ذيّاك الحنينْ

فتهاملتْ أحزانُ قلبي في أغاريد الأنانين

فَلَكَمْ أرَقْتُ مدامعي ، حتى تقرّحتِ الجفونْ

ثمّ التفتّ ، فلم أجد قلبًا يقاسمني الشجون

فعسى يكون الليل أرحم ، فهو مثلي يندب

وعسى يصـــون الزهر دمعيّ ، فهو مثل يسكب

قد قنعتْ كفُّ المساء الموتَ بالصّمت الرهيب ،
فغدا كأعماق الكهوف ، بلا ضجيج أو وجيب

يأتى بأجنحة السكون ، كأنه الليل البهيم
لكن طيفَ الموت قاسٍ ، والدجى طيفٌ رحيم

ما للمنية لا ترقُّ على الحياة النائحه ؟
سيّان أفئدةٌ تئن ، أو القلوب الصادحه

يا شِعرُ ! هل خُلِقَ المَنون بلا شعورٍ كالجماد ؟
لا رِعشة تعرو يدَيْه إذا تملّقَه الفؤاد ؟

أرأيتَ أزهارَ الربيع ، وقد ذوتْ أوراقها
قهرت إلى صدر التراب ، وقد قضت أشواقُها ؟

أرأيت شحرور الفلا ، مترنما بين الغصون
جمد النشيدُ بصدره ، لما رأى طيفَ المنون ؟

فقضى ، وقد غاضت أغاريدُ الحياة الطاهرة
وهوى من الأغصان ، ما بين الزهور الباسرة ؟

أرأيتَ أمّ الطفل تبكى ذلك الطفلَ الوحيد
لمّا تناوله ، بعنفٍ ، ساعدُ الموت الشديد ؟

أسمعتُ نَوْحَ العاشق الولهانِ ، ما بين القبور
يبكى حبيبته ؟ فيالمصارع الموت الجسور !

طفحتْ بأعماق الوجود سكينةُ الصبر الجليد .
لما رأى عدل الحياة يضمه اللحدُ الكنود

فدفقتُ لحناً ، يردده على سمع الدهـــور
صوتُ الحياة بضجة . . . ، تسمى على شفة البحور

يا شعرُ ! أنتَ نشيدُ أمواج الخضم الساحرة
الناصعات ، الباسمات ، الراقصات ، الطاهرة

السافرات ، الصادحات مع الحياة إلى الأبد ؟
كعرائس الأمل الضحوك ، يَمِسْنَ ما طال الأمد

ها إن زهـــارَ الربيع تبسمتْ أكمامُها
يرنو إلى الشَّفق البعيدِ ، تغرُّها أحـــلامُها

فى صدرها أملٌ ، يحدِّق نحو هاتيك النجوم
لكنه أملٌ ، ستلحده جبابرةُ الوجـــوم

فلسوف تغمض جفنها ، عن كل أضواء الحياة
حيث الظـــلام مُخَيِّمٌ فى جو ذياك السبات

ها إنها همست بآذن الحياة غريدَها

فتلتْ عصافيرُ الصباح ، صُداحَها ونشيدَنا

يا شعرُ ! أنت نشيد هاتيك الزهور الباسمهْ

يا ليتنى مثل الزهور ، بلا حيـــــاة واجمه

إن الحياة كئيبةٌ ، مغمورة بدموعها ! !

والشمسُ أضجرها الأسى ، فى صحوها وهجوعها

فتجرعت كأساً دِهاقاً ، من مُشَعْشَعة الشَّفَق

فتمايلتْ ، سَكرى إلى كهف الحياة . . ولم تُفِق

يا شعرُ ! أنتَ نحيبها لمّا هَـــــوَتْ لسُباتها

يا شعرُ أنتَ صُداحها ، فى موتها وحياتها

انظر إلى شفق السماء ، يفيض عن تلك الجبالْ

بشعاعه الخـــــلاب ، يغمرها ببسمات الجمال

فيثير فى النفس الكئيبة عاصفاً لا يركد

ويؤجّج القلبَ المعذَّبَ شـــــعلةً لا تخمد

يا شعرُ ! أنت جمال أضواء الغروبْ الساحرة

يا همسَ أمواج المساء ، الباسماتِ الحائرة

يا نايَ أحلامي الحبيبةِ ! يا رفيقَ صَبابتي
لولاكَ متُّ بلوعتي ، وبشـــــــوقي ، وكآبتي

فيكَ انطوتْ نفسي ، وفيكَ نفختُ كلَّ مشاعري
فاصدح على قمم الحياة بلوعتي ، يا طائري

زئير العاصفة

تسائلني : « مالى سكتُّ ، ولم أهِبْ بقومى ، وديجورُ المصائب مظلم »
« وسيل الرزايا جارفٌ ، مندفعٌ غضوبٌ ، ووجه الدهر أربدُ ، أقتم ؟ »

* * *

سكتُّ ، وقد كانت قنانىَ غضّة تُصيخ إلى همس النسيم ، وتحلُمُ
وقلتُ ، وقد أصغتْ إلى الريح مَرّةً فجاش بها إعصاره المتهزّم
وقلتُ وقد جاش القريض بخاطرى كما جاش صخّابُ الأواذىٌّ ، أسحم :

* * *

« أرى المجد معصوبَ الجبين مُجدّلاً على حَسَكِ الآلام ، يغمره الدم »
« وقد كان وضّاح الأسارير ، باسماً يهبُّ إلى الجُلّى ، ولا يتبرّم »

* * *

« فيا أيها الظلم المصعّر خدّه رويدك ! إن الدهر يبنى ويهدم »
« سيثأر للعزّ المحطّم تاجه رجالٌ إذا جاش الرّدى فهمُ هُمُ »
« رجالٌ يرونَ الذُّلَّ عاراً وسُبّة ولا يرهبون الموتَ ، والموتُ مقدم »
« وهل تعتلى إلا نفوسٌ أبيّةٌ تصدّع أغلالَ الهوانِ ، وتحطِم »

إلى الطغاة

يقولون : « صوت المستذلّين خافتٌ … وسمع طغاة الأرض (أطرشُ) أضخمُ »
وفى صيحة الشعب المسخَّر زعزعٌ … تخرُّ لها شمُّ العروش ، وتُهدَمُ
ولعلةُ الحق الغضوب لها صدى … ودمدمة الحرب الضروس لها فمُ
إذا التفَّ حول الحق قوم فإنّه … يصرِّمُ أحداثَ الزمان ويُبرمِ .

* * *

لك الويل يا صَرحَ المظالم من غدٍ … إذا نهض المستضعفون ، وصمّموا !
إذا حطَّم المستعبَدون قيودَهم … وصبُّوا السخط أيّان تعلم . . !
أغرّك أن الشعب مُغضٍ على قذى … وأنَّ الفضاء الرَّحبَ وسنانُ ، مظلمُ ؟
ألا إنَّ أحلامَ البلاد دفينةٌ … تجمجم فى أعماقها ما تجمجم
ولكن سيأتى بعد لأيٍ نشورها … وينبثق اليوم الذى يترنّم
هو الحق يُغفى . . . ثمَّ ينهض ساخطا … فيهدمُ ما شاد الظِّلام[1] ، ويحطمُ
غدا الرَّوْع ، إن هبَّ الضعيفُ ببأسه ، … ستعلم من مِنّا سيجرفه الدّمُ
إلى حيث تجنى كفُّه بذرَ أمسِه … ومُزدَرِعُ الأوجاعِ لا بد يندمُ
ستجرع أوصابَ الحياة ، وتنتشى … فتصغى إلى الحق الذى يتكلم
إذا ما سقاك الدهر من كأسه التى … قُرارتها صابٌ مَريرٌ ، وعلقم
إذا صعق الجبّار تحت قيوده … يصيخ لأوجاع الحياة ويفهم !!

(١) الظلام بكسر الظاء : الظلم .

السَّـآمَـة

سئمتُ الحيـاة ، وما فى الحيـاة   وما إن تجاوزتُ فجرَ الشبابْ
سئمتُ الليـالى ، وأوجاعَها   وما شعْشَعتْ من رحيقٍ بصباب
فحطَّمتُ كأسى ، وألقيتُها   بوادى الأسى وجحيم العذاب
فأنَّتْ ، وقد غمرتْها الدموع   وقرَّتْ ، وقد فاض منها الحباب
وألقى عليهـا الأسى ثوْبَه   وأقبرَ الصمتُ والإكتئاب

* * *

فأين الأمانى وألحـــانُها ؟   وأين الكئوس ؟ وأين الشراب
لقد سحقتْها أكفُّ الظلام   وقد رشفتْها شفاهُ السراب

* * *

فما العيش فى جوْمةٍ بأسُها   شديدٌ ، وصدَّاحها لا يُجاب
كئيبٌ ، وحيـــــدٌ بآلامه   وأحلامِه ، شدْوُهُ الانتحاب
ذواتٌ فى الربيـــع أزاهيرها   فنِمْنَ ، وقد مصَّهُنَّ الترابْ
لَوَيْنَ النُّحـــورَ على ذِلَّةٍ   ومُتْن ، وأحلامَهنَّ العِـذاب
فحالَ الجمالُ ، وغاض العبيرُ   وأذْوى الرَّدَى سحرَهُنَّ العُجاب

الحب

الحبُّ شعلة نورٍ ساحرٍ، هبطتْ   من السماء، فكانتْ ساطعَ الفلَق.
ومزّقت عن جفون الدّهر أغشِيَةً   وعن وجوه الليالى بُرقعَ الغسق
الحب روحُ إلٰهىٌّ، مجنّحةٌ   أيامُه بيضـاء الفجر والشفق
يطوف فى هذه الدنيا، فيجعلها   نجْمًا، جميلاً، ضحوكا، جدَّ مؤتلق.
لولاه ما سُمِعتْ فى الكون أغنيةٌ   ولا تآلفَ فى الدنيا بَنُو أُفُقِ
الحبُّ جدولُ خمرٍ، من تذوّقه   خاض الجحيمَ، ولم يُشفِق من الحرق
الحب غاية آمال الحياة، فما   خوْفِى إذا ضمّنى قبرى؟ وما فَرَقى؟

أيها الحب

أيها الحب! أنت سر بلائى   وهمومى، وروعتى، وعنائى.
ونحولى، وأدمعى، وعَذابِى   وسقامى، ولوعتى، وشقائى.

* * *

أيها الحب! أنت سرّ وجودى   وحياتى، وعزّتى، وإبائى
وشعاعى ما بين ديجور دهرى   وأليـفى، وقُرّتى، ورجائى

يا سلافَ الفؤاد ! ياسُم نفسى ... فى حياتى يا شدتى ! يا رخائى !
ألهيبٌ يثور فى روضة النفس ، فيطغى ، أم أنت نور السماء ؟

* * *

أيها الحب قد جرعتُ بك الحُز ... ن كؤوسًا ، وما اقتنصتُ ابتغائى
فبحق الجمال ، يا أيها الحـ ... ـب حنانيك بى ! وهوِّن بلائى

* * *

ليت شعرى ! يا أيها الحب ، قل لى : ... مِنْ ظلام خُلقتَ ، أم من ضياء ؟

الدموع

ينقضى العيش بين شوق ويأس ... والمنى بين لوعة وتأسِّ
هـذه سُنَّةُ الحياة ، ونفسى ... لا تودُّ الرحيق فى كأس رِجس
مُلِئْ الدهر بالخداع ، فكم قد ... ضلَّلَ الناسَ من إمام وقَسِّ
كلما أسأل الحياة عن الحق ... تكفُّ الحياة عن كل همس
لم أجد فى الحياة لحنًا بديعًا ... يستبينى سوى سكينة نفسى
فسئمت الحياةَ ، إلاّ غرارًا ... تتلاشى به أناشيدُ يأسى

* * *

ناولتنى الحياة كأسًا دِهاقا ... بالأمانى ، فما تناولتُ كأسى

وسقتنى من التعاسة أكواباً نجرعتها ، فياشد تعسى !
إن فى روضة الحياة لأشواكاً بها مُزِّقت زنابق نفسى

***

ضاع أمسى وأين منىَّ أمسى ؟ وقضى الدهرُ أن أعيش بيأسى ؟
وقضى الحبُّ فى سكون مريعٍ ساعةَ الموت بين سخط وبؤس
لم تُخَلِّفْ لىَ الحياة من الأمس سوى لوعةٍ ، تهبُّ وترسى
تتهادى مابين غصات قلبى بسكونٍ وبين أوجاع نفسى
كخيال من عالم الموت ، ينساب بصمتٍ مابين رمسٍ ورمس
تلك أوجاعُ مهجةٍ ، عذَّبتها فى جُحيم الحياة أطيافُ نحس

أغنية الأحزان

غنِّنى أنشودة الفجر الضَّحوكْ
أيهــا الصــــداحْ !
فلقد جرّعنى صوتُ الظلام
ألماً علّمنى كره الحيـاةْ
إن قلبى مَلّ أصداء النواح
غننى ، ياصـــاحْ !

***

حطمت كفُّ الأسى قيثارتى

فى يد الأحـــلام

فقضت صمتا ، أناشيدُ الغرامْ

بين أزهار الخريف الذاويهْ

وتلاشت فى سكون الاكتئاب

كصـدى الغــرِّيد

* * *

كفَّ عن تلك الأغانى الباسمهْ

أيها العصـــفورُ !

فخيالى ألِفتْ لحنَ الأسى

من زمانٍ قد تقضَّى ، وعَسَى

أن يثير الشَّدوُ ، فى صمت الفؤادْ

أنةَ الأوتار . . . !

* * *

لا تغنينى أغاريد الصبـــاحْ

بلبـــلَ الأفراح !

فؤادى وهـو مغمور الجراح

بتباريح الحيـاة الباكـيهْ

ليس تستهويه ألحان السرور

وأغـانى النـوّر

* * *

إنَّ مَنْ أصغى إلى صوت المَنون

وصدى الأجـــــــداثِ،

ليس تستهويه ألحانُ الطيورْ

بين أزهار الربيع الســـاحرهْ

وابتسامات الحيـاة ، السافرهْ

عن حــلال الله !

* * *

غنني ياصاح ، أناتَ الجحيمْ

واســــــقني الآلام،

أترع الـكأسَ بأوجاع الهموم

واسقني ، إنّي كرهتُ الابتسام

غنني ندبَ الأماني الخائنهْ

والليـــالي الســــود.

* * *

غنني صــوت الظلام المكتئبْ

إنــني أهــــواهْ

هاكَ كأس القلب فاملأها نُواح

واسكب الحزنَ بها حتّى مصباحْ !

إنها من طينـة الحزن المَرير

صاغهـا الخَــــلاق

* * *

بِئْستْ الأفراحُ ، أفراح الحياة

إنها أحلام

تخلب اللب بألحانٍ عِذابْ

وأغاريدَ ، كأملاك السما

ثم لا تلبث أن تذوى كما

تذبل الأزهارْ

* * *

خبِّرينى ، ماالذى خلف الغيوم ...؟

ربة الأحلامْ

أفتى المجهولِ ، وجبّارُ الهموم ؟

أم عروسُ الأملِ العذبِ الشرود

تتهادى بين لألاء الصباح ؟

كملاك النور

* * *

أنا فى درب الحياة الغامضة

تائهٌ ، حيرانْ

بينما أبصر فى وجه الحياة

ظلمة الأحزان فى ظل الألمْ

إذ أرى في جفنها نوراً ، بديع
باسما ، فتّـــــانْ

* * *

ها أنا أسمع في قلب الحيـاة
صيــــحةَ الآلام
مُرّةً تنسـاب ، من قلب حطيم
ملأ الحزنُ أقاصيه دمـــــوعْ
ها أنا أسمع أصوات السرور
كَفَّـــتِ الأيام

المجد

يودُّ الفتى لو خاض عاصفة الردى وصدَّ الخميسَ المَجْرَ والأسَدَ الوَرْدَا

ليدرك أمجاد الحروب ، ولو درى حقيقتَهَا ما رام من بينها مجْدَا

فما المجد فى أن تُسكِرَ الأرض بالدِّما وتركبَ فى هيجائها فرَسًا نهْدَا

ولكنه فى أن تصدَّ بهمَّةٍ عن العالم المرزوء ، فيْضَ الأسى صدَّا

سر مع الدهر

سر مع الدهر ، لا تصدنك الأهوال ، أو تفْزِعَنَّكَ الأحداثُ

سر مع الدهر ، كيفما شاءت الدنيا ، ولا يخدعنَّك النفَّاثْ

فالذى يرهبُ الحياةَ شقىٌّ ، سخرتْ من مصيره الأجداثُ

الذكرى

كنّا كزوجيْ طائر ، فى دوْحة الحب الأمينْ

نتلو أناشيد المنى بين الخمائل والغصون

متغرِّدَيْن مع البلابل فى السهول وفى الحزون

مَلأ الهوى كأس الحياة لنا ، وشعشعها الفُتون

حتَّى إذا كدنا نُرشِّفُ خمرها ، غضب المنون

فتخطَّف الكأسَ الحلوبَ ، وحطَّم الجام الثمين

وأراق خمر الحب فى وادى الكآبة والأنين

وأهاب بالحبِّ الوديع ، فودَّع العُشَّ الأمين

وشدا بلحن الموتِ فى الأُفُق الحزين المستكين

ثم اختفى خلف الغيوم ، كأنه الطيف الحزين . . .

* * *

يا أيها القلب الشجىّ ! إلام تخرسك الشجون

رُحماكَ قد عذَّبتنى بالصمتِ والدمع المتون

مات الحبيب ، وكل ما قد كنتَ ترجو أن يكون !

فاصبرْ على سخط الزمان ، وما تصرّفه الشئون

فلَسَوْفَ يُنقذك المنونُ ، ويفرح الروح السجين . . .

* * *

وِرْدُ الحياة مُرَنَّقٌ ، والموت مورده مَعين

ولربّما شاق الردى الداجى ، وأعماقُ المنون

قلبًا ، تروّعه الحياة ، ولا تُهادنه السّنون

ومشاعرًا حسْرَى ، يسيرُ بها القنوط إلى الجنون

مناجاة عصفور

يا أيها الشادى المغرِّد هاهنا ثَمِلاً بغبطة قلبه المسرور
متنقِّلاً بين الخمائل ، تاليا وحْىَ الربيع الساحر المسحور
غرِّدْ ، ففى تلك السهول زنابقٌ ترنو إليك بناظرٍ منظور
غرِّدْ ، ففى قلبى إليك مودَّةٌ لكن مودَّة طائرٍ مأسور
هجرته أسراب الحمائم ، وانبرَتْ لعذابه جِنِّيَّةُ الديجور . . .
غرِّدْ ، ولا ترهبْ يمينى ، إننى مثل الطيور بمهجتى وضميرى
لكنْ لقد هاض التراب ملامحى فلبثتُ مثل البلبل المكسور
أشدُو برنَّاتِ النياحة والأسى مشبوبةً بعواطفى وشعورى
غرِّدْ ، ولا تحفل بقلبى ، إنه كالمعزف ، المتحطِّم ، المهجور

* * *

رتِّلْ على سمع الربيع نشيدَهُ واصدحْ بفيْضِ فؤادك المسجور
وانشد أناشيد الجمال ، فإنها روحُ الوجود ، وسلوة المقهور
أنا طائر ، متفرِّدٌ ، مترنِّمٌ لكن بصوت كآبتى وزفيرى
يهتاجنى صوتُ الطيور ، لأنَّه مُتَدَفِّقٌ بحرارة وطَهور
ما فى وجود الناس من شىء به يَرْضَى فؤادى أو يُسَرُّ ضميرى
فإذا استمعتُ حديثَهم ألفيتُهُ غثا ، يفيض بركَّةٍ وفتور
وإذا حضرتُ جموعَهم ألفيْتُنِى ما بينهم كالبلبل المأسور

متوحّداً بعواطفى ، ومشاعرى ، وخواطرى ، وكآبتى ، وسرورى
يَنْقَابُنِى حَرَجُ الحياة كأننى منهم بوهدة جندل وصخور
فإذا سكتُّ تضجّروا ، وإذا نطقت تذمّروا من فكرتى وشعورى
آهِ من الناس الذين بلوتُهم فقلوتُهم فى وحشتى وحبورى !
ما منهم إلا خبيث غادر متربّص بالناس شرَّ مصير
ويودُّ لو ملك الوجودَ بأسره ورمى الورى فى جاحم مسجور
ليبُلَّ غلّتــه التى لا ترتوى ويكضّ تهمة قلبــــه المنفور
وإذا دخلتُ إلى البلاد فإنّ أفكا رى ترفرف فى سفوح الطُّور
حيث الطبيعة حلوة فتّانةٌ تختال بين تبرُّج وسفور
ماذا أودُّ من المدينة ، وهى غارقةٌ بموّار الدّم المهدور !
ماذا أودُّ من المدينة ، وهى لا ترثى لصوت تفجّع الموتور ؟
ماذا أودُّ من المدينة ، وهى لا تعنو لغير الظالم الشرّير ؟
ماذا أود من المدينة ، وهى مُرْتادٌ لـكل دعارة وفجــــور ؟

* * *

يا أيها الشادى المغرّد هاهنا ثملا بغبطة قلبه المسرور !
قبِّلْ أزاهير الربيع ، وغنّها رنَمَ الصباح الضاحك المحبور
واشرب من النّبع ، الجميل ، الملتوى ما بين دَوْح صنوبر وغدير
واتركْ دموع الفجر فى أوراقها حتى تُرشّفها عروسُ النور
فلربما كانت أنينا صاعدا فى الليل من متوجع ، مقهور
ذرفته أجفانُ الصباح مدامعا ألأقة ، فى دوحة وزهور . . .

الطُّفُولة

لله ما أحلى الطفولة ! إنها حلم الحياة
عهدٌ كمعسول الرؤى ما بين أجنحة السبات . . .
ترنو إلى الدنيا ، وما فيها بعين باسمهْ
وتسير فى عدوات واديها بنفس حالمهْ . . .

* * *

إن الطفولة تهتَزُّ فى قلب الربيعْ
ريَّانةٌ من ريّق الأنداء فى الفجر الوديع
غنَّت لها الدنيا أغانى حبِّها وحبورها
فتأوّدت نَشوى بأحلام الحياة ونورها

* * *

إن الطفولة حقبةٌ شعريّةٌ بشعورها
ودموعها ، وسرورها ، وطموحها ، وغرورها
لم تمش فى دنيا الكآبةِ ، والتعاسة ، والعذاب
فترى على أضوائها ما فى الحقيقة من كِذاب

قالت الأيام

يا أيها السادر في غَيِّــــه !
يا واقفاً فـــوق حطام الجباه !
مهلاً ! ففي أنات من دستَهم
صوتٌ رهيبٌ سوف يدوى صداه . . .

* * *

لا تأمننّ الدهر ، إنما غفـــــا
في كهفه الداجي ، وطالت رُؤاه
فإن قضى اليــومُ وما قبــــله
ففي الغــد الحيّ صباحُ الحياة

* * *

يا أيها الجبــــار ! لا تزدرى
فالحق جبّـــارٌ ، طويل الأناة
يغفى ، وفي أجفـانه يقظـــــة
ترنو إلى الفجر الذى لا تراه . . .

المساء الحزين

أظلّ الوجودَ المساءُ الحزين ، وفى كفه مِعزف لا يُبين
وفى ثغره بسمات الشجون ، وفى طرفه حسرات السنين .
وفى صدره لوعة لا تقرّ ، وفى قلبه صعقات المنون
وقبّله قبلاً صامتات ، كما يلثمُ الموتُ وَرْدَ الغصون
وأفضى إليه بوحى النجوم ، وسر الظلام ، ولحن السكون
وأوحى إليه مزاميرَه ، فغنّتْ بها فى الظلام الحزُونْ
وعلّمه كيف تأسَى النفوس ، ويقضى يؤوسًا لديها الحنين
وأسمعه صرخات القلوب ، وأنهله من سُلاف الشئون ـ
فأغفى على صدره المطمئن ، وفى رُوحه حلم مستكين .
قوىٌّ ، غلوبٌ ، كسحر الجفون ، شجىٌّ ، لعوبٌ ، كزهر حزين
ضحوكٌ ، وقد بلّلته الدموع ، طروبٌ ، وقد ظلّلته الشجون .
تعانقه سكرات الهوى ، وتحضنه شهقات الأنين .
يشابهُ رُوحَ الشباب الجميل إذا ما تألّق بين الجفون .
أعاد لنفسى خيالاً جميلاً . . . لقد حجبته صروف السنين .
فطافت بها هجسات الأسى ، وعادت لها خطوات الجنون

* **

أظلَّ الفضاء جناحُ الغروب ، فألقى عليه جمالاً كئيب
وألبسه حلّةً من جلالٍ ، شجيٍّ ، قويٍّ جميلٍ ، غلوبْ
فنامت على العشب تلك الزهورُ لمرأى المساء الحزين الرهيب
وآبت طيور الفضاء الجميل لأوكارها ، فرحاتِ القلوب
وقد أضرمت بأغاريدها خيالَ السماء الفسيح الرحيب
وولّى رعاةُ السّوامِ إلى الحيّ يزجونها فى صُمات الغروب
فتَثغو ، حنيناً لُحملانها ، وتقطفُ زهْرَ المروج الخصيب
وهم ينشدون أهازيجهم بصوت ، بهيجٍ ، فَرُوحٍ ، طروب
ويَستَنفِخُونَ مزاميرهم ، فتمنحهم كلَّ لحنٍ عجيب
تطير به نسماتٌ الغروب إلى الشفَق المستطير الخلوب
وتوحى لهم نظراتُ الصبايا أناشيد عهد الشباب الرطيب
وأقبل كلٌّ إلى أهله ، سوى أمَلِى ، المستطار ، الغريب
فقد تاه فى مَشعَبات الحياة ، ومُدَّتْ عليه مناحِى الدروب
وظلَّ شريداً ، وحيداً ، بعيداً ، يغالب عُنْف الحياة العصيب
وقد كان من قبلُ ذا غبطةٍ ، يرفرف حول فؤادى الخصيب

* * *

ولمّا أظلَّ المساء السماء ، وأسكر بالحزن روحَ الوجودْ
وقفت ، وساءلته : « هل يؤوب لقلبى ربيعُ الحياة الشّرُود ؟ »
« فتخفقُ فيه أغانى الورود ويخضرُّ فردوسُ نفسى الحصيد ؟ »

« وتختال فيه عروس الصباح ، وتمرح نشوى بذاك النشيد ؟ »

« ويرجع لى من عراص الجحيم سلامُ الفؤاد ، الجميلُ ، المهيد ؟ »

« فقد كبّلتَه بناتُ الظلام ، وألقيتَه فى ظلام اللحود ؟ »

فأصغى إلى لَهَفي المستمرِّ ، وخاطبنى من مكانٍ بعيد :

« تعودُ ادِّكاراتُ ذاك الهوى ، ولكنّ سحر الهوى لا يعود »

فجاشتْ بنفسِى مآسى الحياة ، وسخطُ القنوط القوىُّ المريد

ولمّا طغت عصَفاتُ القنوط فمادتْ بكلٍّ مكين ، عتيد

أهبت بقلبى ، الهلوع ، الجزوع ، وكان من قبلُ جلْدًا ، شديد :

« تجلّدْ ، ولا تستكنْ لليالى ، فما فاز إلاّ الصبورُ ، الجليد »

« ولا تأسَ من حادثات الدهور ، فخلف الدياجير فجرٌ جديد »

« ولولا غيومُ الشتاء الغِضابُ لما نضّدَ الروضُ تلك الورود »

« ولولا ظلامِ الحياة العبوسُ لما نسجَ الصبحُ تلك البرودْ »

بقايا الخريف

كرهتُ القصورَ ، وقطانَها ، وما حولَها من صراعٍ عنيفْ !
وكيدِ الضعيف لسعى القويِّ ، وعصف القويِّ بجَهد الضعيف
وجاشت بنفسى دموع الحياة ، وعجَّتْ بقلبى رياح الصروف
لقلب الفقير الحطيم ، الكسير ودمع الأيامى السفيح الذريف
ونَوْحِ اليتامى على أمهات ، توارَيْنَ خلف ظلام الحتوف
فسرْتُ إلى حيث تأوى أغانى الربيع ، وتذوى أمانى الخريف
وحيث الفضا شاعرٌ ، حالمٌ ، يفاجى السهول بوحيٍ ، طريف
وقد دثَّرته غيومُ المساء بظلٍّ ، حزينٍ ، ضريجٍ ، شفيف
وبين الغصون التى جرَّدتها ليالى الخريف ، القويِّ العَسُوف
وقفْتُ ، وحولِي غديرٌ ، مواتٌ ، تمادتْ به غَفَوَاتُ الكهوف
قضتْ فى حفافَيْه تلك الزُّهور ، فكفَّنها بالصقيع الخريف
سوى زهرةٍ شقيتْ بالحياةِ ، ومَلْبَثِها بالمُقام المخيف
يروِّعها فيه قصفُ الرعود ، ويحزنها فيه ندْبُ الزفيف
وَينْتابُها فى الصباح السديمُ ، وفى الليلِ حلمٌ ، مريعٌ مخيف
وتُرْهِبُها غاديات الغمام ، وتُؤْلمها كلُّ ريحٍ عصوف
فتَرْنُو لما حولها من زهور ، ومانمَّ إلا السحيقُ ، الجفيفْ !

فتبكى بكاء الغريب ، الوحيدِ ، بِشجْوٍ كظيمٍ ، ونَوْحٍ ضعيف
تباكى به لُبّها المســـــتطارَ ، وترثى به ماطوتْه الحُتوف
وتشكو أساها بياضَ النهارِ ، وتندُبُ حظَّ الحياة السخيف
ولكنْ لقد فقدتْ فى الوجود رفيقاً مُصيخاً ، وقلباً رءوف
فما ثَمّ إلا الصخورُ القواسى ، وإلاّ الصدى المستطارُ الهتوف
فجادتْ بروحٍ شقىٍّ ، شجىٍّ ، لقد عذّبته الليالى صنوف
وماتتْ ، وقد غادرتْها بقاعٍ من الأرض ضَنْكٍ ، حياةُ الصروف
فبانتْ حيالَ الغدير الأصمّ ، وقد أخرس الموتُ ذاك الحفيف
وقد خضّبتْها غيومُ المساء ، كغانية ضرّجتها السيوف

فسلْها : « تُرى كيف غاض الأريجُ ؟ وكيف ذَوَى سحرُ ذاك الرفيف ؟ »
« وكيف خَبَتْ بسماتُ الحياة بأجفانها ، وعراها الكسوف ؟ »
« وكيف لَوَتْ جيدَها الحادثاتُ وألْوَتْ بذاك القوام اللطيف ؟ »
ذكرتُ بمضجعها المطمئنّ ومرقدها فى السَّفير الجفيف
مصـــارعَ أمالىَ الغابراتِ وخيبَتَها فى الصراع العنيف
فقلّبْتُ طرفى بمهْوَى الزهور وصعّدته فى الفضاء الأسيف
وقلت : « هُوَ الكونُ مَهْدُ الجمال ولكنْ لكل جمالٍ خريف ! . . »
وأطرقتُ ، أصغى لهمس الأسى وقد غَشِىَ النفسَ همٌّ كثيف
وغاضتْ ثُمالةُ نور النهـار وأرخى ظلامُ الوجود السجوف

أغنية الشاعر

يا ربةَ الشعرِ والأحلام ، غنّيني فقد سئمتُ وجومُ الكونِ ، من حين
إن الليالى اللواتى ضمّخت كبدى بالسّحر أضحتْ مع الأيام ترميني
ناختْ بنفسى مآسيها ، وما وجدتْ قلباً عطوفاً يُسلّيها ، فعزّيني
وهدٌّ من خلَدى نوْحٌ ، ترجّمه بَلْوَى الحياة ، وأحزانُ المساكين
على الحياة أنا أبكى لشقوتها فمن إذا متُّ يبكيها ويبكيني ؟
يا ربة الشّعرِ ، غنّيني ، فقد ضجرت نفسى من الناس أبناء الشياطين
تبرّمت ببنى الدنيا ، وأعوزها فى معزف الدهر غرّيد الأرانين
وراحةُ الليلِ ملأى من مدامعه وغادة الحب ثكلى ، لا تغنّيني
فهل إذا لُذْتُ بالظلماء ، منتحباً أسلو ؟ وما نَفْعُ محزون لمحزون ؟
يا ربة الشعر ! إنى بائسٌ ، تعسٌ عدِمتُ ما أرتجى فى العالَمَ الدون
وفى يديكِ مزاميرٌ يخالجها وحى السماء ؛ فهاتيها ، وغنيني
ورتّلى حوْلَ بيت الحزن أغنيةً تجلو عن النفس أحوانَ الأحايين
فإن قلبىَ قبرٌ ، مظلمٌ ، قُبرتْ فيه الأمانى ، فما عادت تناغيني
لولاكِ فى هذه الدنيا لما لمستْ أوتارَ روحىَ أصواتُ الأفانين
ولا تغنّيتُ مأخوذاً . . ، ولا عذُبتْ لىَ الحياةُ لدى غضّ الرياحين
ولا أصختُ إلى الأصداء ، راقصةً بين الكهوف ، على عزف الشياطين
ولا ازدهى النفسَ فى أشجانها شفقٌ يُلوّنُ الغيمَ لهواً أىّ تلوين
ولا استخفَّ حياتى ، وهى هائمةٌ فجرُ الهوى فى جفون الخُرّدِ العين

في فجاج الآلام

يا لابتســـامة قلبٍ مطلولةٍ بدمــــوعِهْ
غاضت ، فلم تبق إلاّ الدموع بين صدوعِهْ
فظلَّ يهتف من شجوِ هِ ، وفرْط ولُوعِـهْ
« ويْح الحياة ! أما تنقضى لديهـا الرزايا ؟ ! »
« أما يُــكَفْــكِفُ هذا الزمانُ صوْبَ البلايا ؟ ! »
« يا دهرُ ! رفقا ! فإن القلوب أمست شظايا »

* * *

يا قلب نهنهْ دموعَ الأسى ، ولوْعة رُوعِكْ
إن الدهـور البواكى غنيّةٌ عن دمـوعِكْ
حسبُ الحياة أسـاها فاطْوِ الأسى فى صدوعِكْ
واحلم بفجر الليالى . . . ، ففجرُها فى هجوعِكْ
وإن غفَوْتَ فإنَّ الحيـــــاة ليست تروعُكْ
وسوف يمضى شتـاء الأسى ، ويأتى ربيعُكْ

* * *

بين القبـور فتـاةٌ جارَ الزمانُ عليْهـا
فافْتــكّ منها بعنفٍ كـفُّ الردى أبوَيْها

تقول والليل ساج والقبرُ مصغٍ إليها :
« يا ليتني متُّ من قبل أن تسوء حياتي »
« وينضبَ الدمع من لوعتي ، ومن حسراتي ! »
« مَنْ لي بحفرة قبر تضمُّني وشكاتي ! »

* * *

في الحيّ صبٌّ يعاني في الصدر داءً دفينا
وفي الفؤاد جوًى كا منًا وحبًّا مكينا
حتى دهته الليالي وجرَّعته مَنُونَه
فشيَّعَ الميْتَ جمعٌ من حيِّه ، يندبونه
حتى إذا ما أرادوا رصْفَ الصفائح دونَه
ناحت عليه فتاة : «ويلي، لمن تتركونه!»

* * *

كان الصبيُّ يصيد الفراش بين الزهور
فداسَ زَهرا نديًّا ألقي به في الغدير
فأخرجوه ، ولكن بعد القضاء الأخير ...
تخرّت الأم حول الصبيِّ ، تصرخ : « ويلي ! »
فقلت ، والقلب دامٍ والناس يبكون حولي :
« ما أسخف العيش تقضي عليه زلّةُ نملٍ ! »

* * *

شيخٌ ، شاهُ دهر الأسى ، وحيدٌ شتيتُ
بين الخرائب يُمسِى على الطَّوى ، ويبيتُ
في ظلمة الليل فاضت على الوجود حياتُه
وطرفُه يرمُق النَّجمَ مِلؤه عبراتُه
وما حواليه إلاّ الخرابُ يُشجِى صُماتُه
فما بكاه فتاه ولا بكتْه فتاتُه

* * *

يا زهرةً سَامَها العابرون خسفاً وهُوناً !
لو كنتِ شوكًا عَصوضاً ما داسكِ العابرونا
لأنّهم يجهلون الوحيَ الذى تُضمرينا
هم يسخرون بهمس الزهور ، وهو بديعُ !
وينُصتون لصوت الأشواك ، وهو مُريعُ !
فلا تبالى بقوم الحق فيهم صريعُ

* * *

ربّاه ! كم من فتاة ، تشكو الحياة وتبكى ،
ومُعْدِم ، بوّأتهُ الدُّهورُ مقعدَ ضَنْكِ
ويائسٍ مات في لُبِّه المرام الوحيدُ
وتائه ، ضاع بين القفار ، وهو فريدُ

حتى طوته من العاصفاتِ ريحٌ شَرُودُ
ربّاه ! رُحماكَ إن الزّمان فضٌّ شديدُ

* * *

يا طائر الشعر ! رَوِّحْ على الحياة الكئيبَهْ
وامسحْ بريشكَ دمْعَ القلوب فهي غريبَهْ
وعزِّها عن أساها فقد دهتها المصيبه
وأنتَ روحٌ جميل ، بين الهضاب الجديبه
فانفخْ بها من لهيب السماء رُوحاً خصيبهْ
وابعث بسحركَ في قلبها ضرامَ الشبيبهْ

جَدْوَلُ الحُبّ

بين الأمس واليوم

بالأمس قد كانت حياتى كالسماء الباسمهْ

واليومَ ، قد أمست كأعماق الكهوف الواجمهْ

قد كان لى ما بين أحلامى الجميلةِ جدولُ

يجرى به ماء المحَبّة طاهراً ، يتسلسلُ

تسعى به الأمواجُ باسمةً كأحلام الصِّبا

بيضاء ، ناصعةً ضحوكاً مثل أزهار الربى

ميّاسةً كعرائس الفردوس بين حُقُولهِ

تتلو أناشيد المُنى فى مَدِّه وقُفُولهِ

* * *

هُوَ جَدْوَلُ الحب الذى قد كان فى قلبى الخَضِلْ

بمراشف الأحلام منطلقاً ، يسيرُ على مَهَلْ

يتلو على سمعى أغاريدَ الحياة الطاهرهْ

ويُثير فى قلبى أناشيدَ الخلود الساحرهْ

تقف العذارى الخالداتُ ... عرائس الشعرِ البديع

فى ضفتَيه ، مُردِّداتٍ نغمةَ الحلم الوديعْ

يلمس من قيثارة الأحلام أوتار الغزل
فتفيض ألحانُ الصبابة عذبةً ، مثل الأمل
وتطير بالبَسَمات والأنغام أجنحةُ الصدى
فى ذلك الأُفُق الجميل ، وذلك النَّسَم الرَّخِل
وهناك حيث تُعانق البسماتُ أنغامَ الغزل
يتمايل الحلمُ الجميل ... كبسمة القلب الثَّمِل

* * *

هُوَ جدولٌ ، قد فجَّرتْ يَنبوعَه فى مهجتى
أجفانُ فاتنةٍ أرتنيها الحياة لشقوتى
جفان ، تراءتْ لى على فجر الشباب
كعروسة من غانيات الشعر ، فى شَفَق الحساب
ثم اختفت خلف السماء ، وراء هاتيك الغيومْ
حيث العذارى الخالداتُ ، يمِسْنَ ما بين النجوم
ثم اختفت أوَّاه ! طائرةً بأجنحة المنون
نحو السماء ، وها أنا فى الأرض تمثال الشجون
قد كان ذلك كله بالأمس ! بالأمس البعيد ...
والأمس قد جرفته مقهوراً يدُ الموت العتيد
قد كان ذلك تحت ظل الأمس ، والماضى الجميل
قد كان ذلك فى شعاع البدر من قبل الأفول

واليوم إذ زالت ظلال الأمس عن زَهَرى البديع
وتجَلْبَبَ الزهرُ الجميـلُ بظلمة الليل المريع
ذبلت مراشفُه ، فأصبح ذاوياً ، نضو الـكلوم
وهوى لأنَّ الليل أسمعه أناشيد الوجوم . . .

* * *

بالأمس قد كانت حياتى كالسماء الباسمة
واليوم قد أمست كأعماق الـكهوف الواجمة

* * *

إذْ أصبح النبع الجميـل يسـير فى وادى الألمْ
متعثِّرًا بين الصخور ، يغور فى تلك الظُّلَمَ
جَفَتْ به أمواجُ ذيَّاك الغـرام الآفل
فتدفقتْ فيه الدموعُ بصَوبهـا المتهاطل
قد حجَّبته غيوم أحزان الوجود القاتمة
قد أخرسته مرارةُ القلب التعيس الظالمه
جمَدتْ على شفتيه أنغام الصبابة والهوى
وقضتْ أغانى الحب ، فى أعماقه ، لمـا هوى
وعدت به الأمواجُ ، جامدةَ الملامح ، قاتمه
قد أسكَتَتْها لوعة الرُّوح الحزين الواجمة
غاضت أمانيها ، وغار بهـا الجمال الساحر

فأصابها — لَهَفًا عليه — الإكتئابُ الكافرُ
في صفحتيه عرائسُ الأشعار تنصب مأتما
يُهرقن فيه الدمعَ ، حتى يلطم الدمعُ الدما
فيسيل ذاك المدمعُ الدّامي لقلب الجدول
حيث المرارةُ ، والأسى ، بين الزهور الذُّبَّل
وينُحن حتى يفُعم الأفاقَ صوتُ الإنتحاب
فتسير أصداه النياحة نحو أطباق الضبّاب
وهناك ما بين الضباب الأقتم الساجي الكئيبْ
تهتزُّ آلامي ، وتختلج الكآبةُ ، بالنحيب

يارفيقي

يا رفيقي ! وأين أنتَ ؟ فقد أعمت جفوني عواصف الأيام
ورمتني بهمهِ ، قاتمٍ ، قفرٍ ، تُغَشيه داجيات الغمام ..
خُذْ بكفِّي ، وغنِّني ، يارفيقي ، فسبيل الحياة وعرٌ أمامي
كلما سِرْتُ زلَّ بي فيه مهوى ، تتضاغى به وحوشُ الحِمام
شعَّبتْه الدهور ، وانطمسَ النُّورُ ، وقامتْ به بنات الظلام
راقصاتٍ ، يُجَلِّبْنَ في حلَكِ الليل ، ويلعبن بالقلوب الدوامي
غنِّني ، فالغِناءُ يَذْرأُ عنَّا الساحِرَ الجن ... ، ساكنَ الآجام ..

* * *

قد تفكرتُ في الوجود ، فأعياني ، وأدبرتُ آيسًا لظلامي
أنشدُ الرَّاحَةَ البعيدةَ ، لكن خاب ظني وأخطأت أحلامي
فمعي في جوانحي أبَدَ الدهر فؤادٌ إلى الحقيقة ظامي
ما تراخى الزَّمانُ إلاَّ وألقى في طواياه قَبْضَةً من ضِرام
تتلظَّى ، يدَ الحياة ، وزادتْ مُعضلاتُ الدُّهور والأعوام
أظمأتْ مهجتي الحياةُ ، فهل يوماً تبُلُّ الحياة بعض أوامي ؟
يارفيقي ! ما أحسبُ المنبعَ المنشودَ إلا وراءَ ليْلِ الرِّجام

غنِّنى ، يا أخيّ ، فالكونُ تيهٌ ، بها قد تمزّقت أقدامى
غنِّنى ، علّنى أُنيمُ همومى ، إنّنى قد مللت من تهيامى

***

يا رفيقى ! أما تفكَّرتَ فى الناس ، وما يحملون من آلام ؟
فلقدْ حزّ فى فؤادىَ ما يَلْقَوْن من صولة الأسى الطلاّم
فإذا سرّنى من الفجر نورٌ ساءنى ما يُسِرُّ قلبُ الظلاّم
كم بقلب الظلام من أنةٍ تهفو بغُصات صِبْيَةٍ أيتام
ونشيجٍ مُضَرَّمٍ من فتاةٍ ، أبهظتْها قوارعُ الأيام
ونُوَاحٍ يفيضُ من قلب أمٍ فُجعتْ فى وحيدها البسام ،
فَطَمَ الموتُ طفلَها ، وهو نورٌ فى دجاها ، من قبل عهد الفطام
وأنينٍ من معدم ، ذى سقام ، عضّهُ الدهر بالخطوب الجسام
ما إخال النُّجوم إلاّ دموعاً ، ذَرَفَتْها محاجر الأعوام
فلقد ضرّم الشجونَ بنوها ، فإذا بالشُّجون سيلٌ طام
وإذا بالحياة فى ملعب الدهر تدوس الرؤوس بالأقدام
وإذا الكون فلذةٌ من جحيمٍ ، بكل قلبٍ دام
وهُمُ فى جحيمهمْ يتناغَوْن بما فى الوجود من أنغام !
عجباً للنفوس ، وهى بواكٍ ، عجباً للقلوب ، وهى دوام
كيف تشدو وفى محاجرها الدمع ، وتلهو ما بينَ سُودِ المرامى ؟!

***

يا رفيقي ! لقد ضلّت طريقي ، وتخطّت محجّتي أقدامي .
خذ بكفي ، فإني تائه ، أعمى ، كثير الضلال والأوهام .
وانفخ النّايَ ، فالحياة ظلامٌ ، مالمرتاده من الهول حام
مِلءِ آفاقه فحيحُ الأفاعي ، وعجيجُ الآثام والآلام .
فانفخ النّايَ ، إنه هِبَةُ الأملاك للمستعيذ بالإلهام
واغذُذِ السّيْرَ ، فالنهارُ بعيدٌ ، وسبيلُ الحياة جمُّ الظلام . . .

إلى الموت

سيٌّ الحياة ، الشقيّ العنيدْ ألا قد ضللتَ الضلال البعيدْ !
أتُنشدُ صوتَ الحياة الرخيمَ ، وأنت سجينٌ بهذا الوجودْ ؟!
وتطلب وَرْدَ الصباح المخضَّب من كفّ حقلٍ ، جديبٍ ، حصيدْ ؟!
إلى الموت ! إنْ شئتَ هَوْنَ الحياة ، فخلف ظلام الردى ما تريد ..

* * *

إلى الموت ! يا ابن الحياة التعيسَ ، ففي الموت صوتُ الحياة الرخيم
إلى الموت ؟ إن عذّبتكَ الدهور ، ففي الموت قلبُ الدهور الرحيم
إلى الموت ! فالموت رُوحٌ جميل ، يرفرف من فوق تلك الغيوم
قَروحاً بفجر الخلود البهيج ، وما حوله من بنات النجوم . . .

* * *

إلى الموت ! فالموت جامُ رويٌّ لمن أظمأته سَمُومُ الفلاة
ولستَ براوٍ — إذا ما ظمئتَ — من المنبع العذب قبل الممات
فما الدمع إلا شراب الدهور ، وما الحزن إلا غذاء الحياة
إلى الموت ! فالموت مَهْدٌ وثير ، تنام بأحضانه الكائنات

* * *

إلى الموت ! إن حاصرتكَ الخطوبُ ، وسدّتْ عليكَ سبيلَ السلامْ
ففى عالمِ الموتَ تنضو الحيـــاةُ رداَء الأسى ، وقناعَ الظلام
وتبـــدو ، كما خُلِقَتْ غضّـةَ يفيض على وجهها الابتسام
تعيـــدُ عليها ظِلّال الخلود ، وتهفـــو عليها قلوبُ الأنام

* * *

إلى الموت ! لا تخش أعمـــاقه ففيها ضيآء السماء الوديع
وفيها تميس عذارى السماء ، عوارىَ ، ينشدن لحنـًا بديع ...
وفى راحهنَّ غضـونُ النخيل يحرِّكْنها فى فضآء يضـوع ...
تضيء به بسمات القلوب ، وتخبـــو به حسرات الدموع

* * *

هو الموت طيفُ الخلودِ الجميـلُ ، ونصف الحياة الذى لا ينوحْ
هنالكَ ... خلف الفضآء البعيد ، يعيش المنونُ القوىُّ الصَّبُوحْ
يضمُّ القـلوب إلى صدره ، ليأسوَ ما مضَّها من جروح
ويبعثَ فيها ربيعَ الحيـــاة ، ويبهجَها بالصباح الفَروح

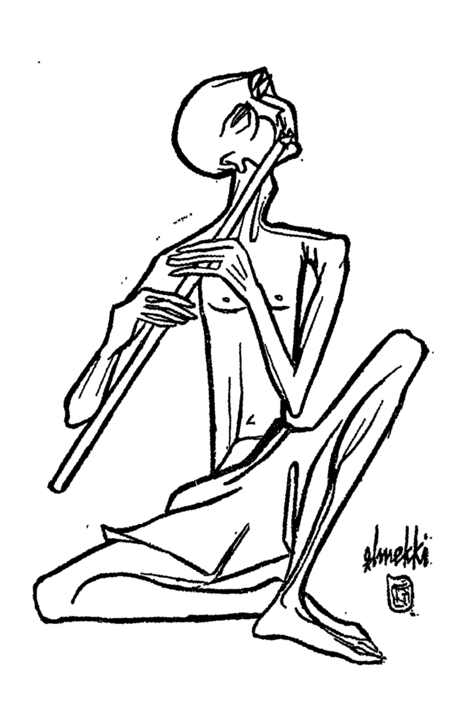
إلى عارفٍ أعمى

أدركتَ فجر الحياة أعمى   وكنتَ لا تعرف الظلامْ
فأطبقت حولك الدّياجي   وغام من فوقك الغمام
وعشتَ في وحشة ، تقاسي   خواطرًا ، كلها ضرام
وغربةٍ ، ما بها رفيق   وظلمةٍ ، ما لها ختام
تشقّ تيهَ الوجودِ فردًا   قد عضّك الفقر والسقام
وطاردت نفسك المآسي   وفرّ من قلبك السلام

* * *

هوّن على قلبك المعنّى   إن كنت لا تبصر النجومْ
ولا ترى الغابَ ، وهو يلغو   وفوقه تخطر الغيوم
ولا ترى الجدولَ المغنّي   وحوله يرقص النسيم
فكلّنا بائس ، جدير   برأفة الخالق العظيم
وكلّنا في الحياة أعمى   يسوقه زعزعٌ عقيم
وحوله تزعق المنايا   كأنها جنّة الجحيم :

* * *



يا صاح ! إن الحياة قفرٌ مروِّعٌ ، ماؤه سراب

لا يجتنى الطَّرْفُ منه إلاَّ عواطفَ الشوك والتراب

وأسعد الناس فيه أعمى لا يبصر الهول والمصاب

ولا يرى أنفسَ البرايا تذوب في وقْدة العذاب

فاحمد إله الحياة ، واقنع فيها بألحانك العِذاب

وعِشْ ، كما شاءت الليالي من آهة النّاي والرّباب

صَوْتٌ تائِهٌ

قضَّيتُ أدوارَ الحياة ، مفكّرًا | في الكائنات ، معذَّبا ، مهمومًا
فوجدتُ أعراسُ الوجود مآتمًا | ووجدت فردوسَ الزمان جَحِيمًا
تدوى مخارمه بضجّة صرصرٍ ، | مشبوبة ، تَذَرُ الجبال هشيما
وحضرتُ مائدةَ الحياة فلم أجدْ | إلّا شرابًا ، آجنًا ، مسموما
ونفضتُ أعماق الفضاء ، فلم أجد | إلا سكونًا ، مُتْعَبًا محموما
تتبخّرُ الأعمار في جَنَبَاتِه | وتموتُ أشواقُ النفوس وجوما
ولمست أوتار الدهور ، فلم تُفِضْ | إلّا أنينًا ، داميًا ، مكلوما
يتلو أقاصيص التعاسة والأسى | ويصيرُ أفراح الحياة همُوما

* * *

شُرِّدْتُ عن وطني السماويِّ الذي | ما كان يومًا واجمًا ، مغموما
شرِّدْتُ عن وطني الجميل .. ، أنا الشقيّ ، فعِشت مشطورَ الفؤاد ، يتيما ...
في غُربةٍ ، روحيّةٍ ، ملعونةٍ | أشواقُها تقضى ، عِطاشًا ، هِيما ...
يا غربةَ الرُّوحِ المفكّرِ ! إنه | في الناس يحيا ، سائمًا ، مسئوما
شُرِّدتُ للدنيا . . . ، وكلٌّ تائهٌ | فيها يُرَوِّعُ راحلًا ومقيما

يدعو الحياة ، فلا يُجيب سوى الرَّدى ليدُسَّـــه تحت التراب رميما
وتظل سائرةً ، كأنَّ نفيسدها ما كان يومًا صاحبًا وحميما !

* * *

يا أيُّها السارى ! لقد طال السُّرى حتَّامَ ترقب فى الظلام نجوما . . ؟
أتخالُ فى الوادى البعيدِ المُرْتَجَى ؟ هيهات ! لن تلقى هناك مَرُوما
سِرْ ما استطعت ، فسوف تُلْفِي — مثلما
خلَّفتَ — تمشوقَ الغصـــون حطيما

نشيد الأسى

يا ليت شعرى ! هل لليل النفس من صبح قريب ؟
فتقرّ عاصفةُ الظلام ، ويهجَعَ الرعدُ الغضوب
ويرتّلَ الإنسانُ أغنيةً مع الدنيـا ، طروب

* * *

ما للرياح تهبُّ فى الدنيا ، ويدركها اللُّغوب
إلّا رياحى ، فهىَ جامحةٌ ، تمرُّدُها عصيب ؟
مالى ؟ تعذّبنى الحيـاة كأننى خَلْقٌ غريب ؟
وتهُدُّ من قلبى الجميل ؟ فهل لقلبى من ذنوب ؟
وإذا سألتُ : « لِمَ الوجود ، وكلّه همٌّ مذيب ؟ »
قالت : « نواميس السماء قضتْ ، ومالك من هروب ؟ »
آهٍ على قلبى ! وإن شقيتْ كشقوته قلوب
أنقى من الموج الوضىء ، ومن نشيد العندليب
لم تقترف إثمَ الحياة ، وكان مأواها اللهيب

* * *

يا مهجةَ الغاب الجميلِ ألمْ يصدِّعْكِ النحيب ؟
يا وجْنَةَ الورد الأنيقِ ألمْ تشوِّهكِ النُّدوب ؟

ياجدولَ الوادى الطروب   ألم يرنِّقْكَ القطوب ؟
يا غيْمةَ الأُفُق الخضيب   ألمْ تمزّقكِ الخطوب ؟
يا كوكبَ الشفقِ الضحوك   أما ألمّ بك الشحوب ؟
ها أنت ذا فى الأفْق تضحكُ ، لا تهمُّ ، ولا تخيب.
تُلقِى على قُنَن الجبال رداء لألاء قشيب.
لتنامَ أورادُ الجبال الشمِّ ، فى مَهْدٍ عجيب
ولكى تغنيكَ الجداولُ لحنَها العذب الحبيب
وترى جمالك من بنات الغاب مِعطارٌ ، لَعوب.
معشوقةٌ ، فى فرعها تاجٌ من الورد الخضيب.
تتلو أناشيدَ الربيع ، كأنها نجوى القلوب
يا كوكبَ الشفق الضحوك ! وأنت مُبْتَهِلُ الكئيب
لُحْ فى السماء ! وغنِّ أبناء الشقاوة والخطوب
أنشودةً تَهَبُ العزاء لكل مُبتئِس غريب
فالطير قد أغفتْ ، وأسكتَ صوتَها الليلُ الهيوب.
وابسط جناحكَ فى الوجود ، فإنه عذبٌ ، خَلُوب
متألِّقٌ بين النجوم ، كأنه حلم طروب.
وانشرْ ضياءكَ ساطعًا ، لِيُنيرَ أعماق القلوب.
فعلى جوانبها من الأحزان ديجُورٌ رهيب

* * *

ما للسماء نقية حولى ، وينبوعى مَشُوب ؟
ما للصباح يسود للدنيا ، وصُبحِى لا يؤوب ؟
ما لى يضيقُ بىَ الوجود ، وكلُّ ما حولى رحيب ؟
ما لى وَجمتُ وكلُّ ما فى الغاب مغترد طروب ؟
ما لى شقِيتُ ، وكل ما فى الكون أخّاذٌ عجيب :
فى الأرض أقدام الربيع تلامس السهل الجديب
فإذا به يحيا ، وينبت رائق الزهر الرطيب
وهناك أنوار النهار تُطلُّ من خلف الغروب
فتخضِّب الأمواج ، والآفاق ، والجبل الخصيب
إن الوجودَ الرحْبَ ، والغاباتِ ، والأُفُقَ الخضيب
لمْ تخبُ أشواق الحياة بها ، فغادرها القطوب
أما أنا ففقدتها ، والليل مربدٌّ ، رهيب
والرِّيحُ تعصفُ بالورود . . ، فمشت سخريةَ الخطوب . . .

* * *

مهما تضاحكت الحياة فإننى أبداً كئيب
أصغى لأوجاع الكآبة ، والكآبة لا تجيب
فى مهجتى تتأوّهُ البلوى ، ويعتلج النَّحيب
ويضجُّ جبَّارُ الأسى ، وتجيش أمواج الكروب
إنى أنا الرُّوحُ الذى سيظل فى الدنيا غريب
ويعيش مضطلعاً بأحزان الشبيبة والمشيب

قلتُ للشعر

أنت يا شعر ، فلذةٌ من فؤادي ... تتغنّى ، وقطعةٌ من وجودي
فيك مافي جوانحي من حَنينٍ ... أبديّ إلى صميم الوجود
فيك مافي خواطري من بكاء ... فيك مافي عواطفي من نشيد
فيك مافي مشاعري من وُجوم ... لا يغنى ، ومن سرور عهيد
فيك ما في عوالمي من ظلام ... سرمدي ، ومن صباح وليد
فيك مافي عوالمي من نجوم ... ضاحكات خلف الغمام الشرود
فيك مافي عوالمي من ضباب ... وسراب ، ويقظة ، وهجود
فيك مافي طفولتي من سلام ، ... وابتسام ، وغبطة ، وسعود
فيك مافي شبيبتي من حنين ، ... وشجون ، وبهجة ، وجمود
فيك - إن عانق الربيع فؤادي - ... تتثنّى سنابلي ووردي
ويغنّي الصباحَ أنشودة الحب ، على مسمع الشباب السعيد
ثم أجني في صيف أحلامي الساحر مالذّ من ثمار الخلود
فيك يبدو خريف نفسي مَلُولاً ، ... شاحبَ اللون ، عاريَ الأملود
جلّلته الحياةُ بالحَزَن الدّا ... مي وغشّته بالغيوم السود
فيك يمشي شتاء أيّاميَ البا ... كي ، وتُرغي صواعقي ورعودي
وتجفّ الزهور في قلبيَ الدا ... جي ، وتهوي إلى قرار بعيد ...

أنت يا شعر قصة عن حياتى أنت يا شعر صورة من وجودى

أنت يا شعر — إن فرحت — أغاريدى — وإن غنت الكآبة — عودى

أنت يا شعر كأس خمر عجيب أتلهى به خلال اللحود . . !

أتحساه فى الصباح ، لأنسى ما تقضى فى أمسى المفقود

وأناجيه فى المساء ، ليلهينى مرآه عن ظلام الوجود

أنا لولاك لم أطق عنت الدهر ، ولا فرقة الصباح السعيد

أنت ما نلت من كهوف الليالى وتصفحت من كتاب الخلود

فيك ما فى الوجود من حلك ، داج ، وما فيه من ضياء ، بعيد

فيك ما فى الوجود من نغم ، حلو ، وما فيه من ضجيج ، شديد

فيك ما فى الوجود من جبل ، وغر ، وما فيه من حضيض ، وهيد

فيك ما فى الوجود من حسك ، يدمى ، وما فيه من غضيض الورود

فيك ما فى الوجود . . ، حب بنو الأرض قصيدى ، أم لم يحبوا قصيدى

فسواء على الطيور — إذا غنت — هتاف السؤوم والمستعيد

وسواء على النجوم — إذا لاحت — سكون الدجى وقصف الرعود

وسواء على النسيم أفى القفر تغنى ، أم بين غض الورود

وسواء على الورود ، أفى الغيران فاحت ، أم بين نهد وجيد

يا إبنَ أُمّي

خُلقتَ طليقاً كطيف النسيم ، وحرًّا كنور الضحى في سماهْ!
تغرِّد كالطير أيْنَ اندفعتَ ، وتشدو بما شاء وحيُ الإلهْ
وتمرحُ بين ورود الصباح ، وتنعم بالنـــــور ، أنَّى تراهْ
وتمشي — كما شئتَ — بين المروج ، وتقطف ورد الرُّبا في رُباهْ

* * *

كذا صاغكَ الله ، يابن الوجود ، وألقتك في الكون هذي الحياه
فمالكَ ترضى بذل القيود ، وتَحنى لمن كبَّلوك الجباه ؟
وتُسكتُ في النفس صوتَ الحياة القويَّ إذا ما تغنَّى صداه ؟
وتطبق أجفانك النيِّرات عن الفجر ، والفجرُ عذبٌ ضياه ؟
وتقنع بالعيش بين الكهوف ، فأين النشيد ؟ وأين الإباه ؟
أتخشى نشيد السماء الجميل ؟ أترهب نور الفضا في ضحاه ؟
ألا انهضْ وسر في سبيل الحياة ، فمن نام لم تَنْتَظِرْهُ الحياه ؟
ولا تخشَ ممَّا وراء التلاع ... فما ثَمَّ إلا الضحى في صباه ...
وإلا ربيعُ الوجود الغريرُ ، يطرِّزُ بالوردِ ضافِي رداه ...
وإلا أريجُ الزهور الصِّباحِ ، ورقْصُ الأشعَّةِ بينَ المياه ...
وإلا حَمامُ المروج الأنيقُ ، يغرِّدُ ، منطلقا في غناه ...
إلى النُّور ! فالنور عذبٌ جميلٌ ، إلى النور ! فالنور ظِلُّ الإله

أغاني التائه

كان في قلبيَ فجرٌ، ونجومْ، وبحارٌ، لا تُغشّيها الغيومْ
وأناشيدٌ، وأطيارٌ تحومْ وربيعٌ، مُشرقٌ، حلوٌ، جميلْ
كان في قلبي صباحٌ، وإياهْ وابتسامات، ولكن ... وا أساه!
آه! ما أهولَ إعصارَ الحياهْ! آه! ما أشقى قلوب الناس! آه!

كان في قلبيَ فجرٌ، ونجومْ،
فإذا الكلُّ ظلام وسديم ....،
كان في قلبيَ فجرٌ، ونجومْ

* * *

يا بني أمّي! تُرى أين الصباح؟ قد تقضّى العُمْرُ والفجْرُ بعيدْ
وطغى الوادي بمشبُوبِ النُّواحْ وانقضتْ أنشودة الفصْل السعيد
أين نايي؟ هل ترامته الرياح؟ أين غابي؟ أين محراب السجود..؟
خبِّروا قلبي – فما أقسى الجراح! – كيف طارتْ نشوةُ العيش الحميد؟

يا بني أمّي! تُرى أين الصباح؟
أوراء البحر؟ أم خلف الوجود؟
يا بني أمي! ترى أين الصباح!

* * *

ليت شعرى ! هل ستسليني الغداة وتعزّيني عن الأمس الفقيد

وتُريني أن أفـراح الحيـاة زُمَرٌ تمضى ، وأفواجٌ تعود

فإذا قلبي صياح ، وإباء . . ، وإذا أحلامىَ الأولى ورود . . ،

وإذا الشُحرور حلو النّغمات . . ، وإذا الغاب ضياء ونشيد . . ؟!

ليت شعرى ! هل ستسليني الغداة

أم ستنساني ، وتبقيني وحيد ؟

ليت شعرى ! هل تعزّيني الغداة ؟

إلى قلبي التائه

ما لآفاقك يا قلبيَ سوداً ، حالكات ؟
ولأورادكَ بين الشوك صفرًا ، ذاويات ؟
ولأطيارك لا تلغو ؟ فأين النغمات ؟
ما لمزمارك لا يشدو بغير الشهقات ؟
ولأوتارك لا تخفق إلا شاكيات
ولأنغـــامك لا تنطق إلا باكيات
ولقد كانت صباحَ الأمس بين النسمات
كعذارى الغاب ، لا تعرف غير البسمات ؟
هو ذا يا قلبيَ البحر ، وأمواج الحياة !
هو ذا القارب مشدوداً إلى تلك الصفاة !
هو ذا الشاطىء ! لكن أين رُبَّانُكَ ؟ مات !
أين أحلامك يا قلبي ؟ لقد فات الفوات !
تلك أطيارٌ ، أنيقاتٌ ، طرابٌ ، فرحات
غرّدتْ ، ثم توارتْ في غيابات الحياة

* * *

أنت يا قلبيَ قلبٌ ، أنضجته الزفرات
أنت يا قلبيَ عشٌ ، نفرت عنه القطاة

فأطارته إلى النهـــــر الرياحُ العاتيات

فهو في التيار أوراق ، وأعواد عراة

أنت حقلٌ ، مُجْـدبٌ ، قد هزئت منه الرعاة

أنت ليلٌ ، مُعْتِمٌ ، تندب فيه الباكيات

أنت كهف ، مظلم ، تأوى إليه البائسات

أنت صَرْحٌ ، شاده الحب على نهر الحياة

لبنات الشعر . . ، لكن قوّضته الحادثات

أنت قبرٌ ، فيه من أيامِيَ الأولى رُفات

أنت عودٌ ، مزّقتْ أوتارَه كفُّ الحياة

فهو في وحشته الخرساء ، بين الكائنات

صامتٌ كالقبر ، إلا من أنينِ الذكريات

أنت لَحْنٌ ساحرٌ ، يخبط في التيهِ المَوَات

أنت أنشودةُ فَجْرٍ . . ، رتّلتْها الظلمات . . .

* * *

أيها السارى مع الظلمة ، في غير أناة

مُطرِقاً ، يخبطُ في الصحراء ، مكبوحَ الشكاة :

تهتَ في الدنيا ، وما أبتَ بغير الحسرات

صلِّ يا قلبي إلى الله ، فإن الموت آت

صلِّ فالنازعُ لا تبقى له غير الصلاة

أكثرت يا قلبي فماذا تروم ؟

يا قلبيَ الدامي ! إلامَ الوجوم ؟
يكفيك ! إن الحزن فظٌّ ، غشوم .
هذي كؤوسي مُرَّةٌ ، كالردى
ما ملؤُها إلا عصير الهموم .
وذاك نايي صامتٌ ، واجمٌ
يُصغي إلى صوت الغرام القديم .
يا قلبي الباكي إلام البُكى ؟
ما في فضاء الكون شيء يدوم .
فانثرْ غُبارَ الحزن فوق الدجى
واسمعْ إلى صوت الشباب الرخيم
وانقُرْ على دفِّ الهوى لحنَه
وارقص مع النور الضحوك الوسيم
يا قلبيَ الداجي ! إلام الوجوم ؟
إن لَمْ ألُمْ قلبي فَمَنْ ذا ألوم ؟
مالك لا تصغي لغير الأسى ؟
مالك لا ترنو لغير الكلوم ؟

مالك قد أصبحتَ لا تصرفُ الأيامَ
إلا في شِعاب الجحيم ؟
أما ترى البلبل في غابه
يشدو وفوق الغاب تخطو النجوم ؟
أمّا ترى الأسحار تبدو بها الغابات
كالأحلام — خلفَ السديم
أما ترى الآمال في سحرها ؟
أما ترى الليل يناغى النجوم ؟
* * *
يا قلبيَ الداجى ! إلامَ الوجوم ؟
أكثرت يا قلبي ، فماذا تروم ؟
هل تحسبُ الأيامَ في زَحْفِها
ترثى لمن قد هدَّمَتْهُ الرجوم ،
كلا ! فإن الدهر يمضى ولا
يلوى على ما خلفه من كليم
والسيلُ لا يرثى لمن حطّمه
والسيل لا يبكى لنوح المشيم
والعاصف الجبّار في سخطه
لا يرحم الغصن ، الرشيق ، القويم
هذى هِيَ الدنيا فماذا الأسى
يا قلبيَ الدامى ، وماذا الوجوم ؟

يا موت

هى صرخة من صرخات نفسى المملوءة بالأحزان والذكريات ، وشظية من شظايا هذا القلب المحطم على صخور الحياة ، قلتها فى أيام الأسى التى تلت نكبتى بوفاة الوالد ، رحمه الله..

ياموتُ ! قد مزّقت صدرى

وقصمْتَ بالأرزاء ظهرى

ورميْتَنى من حالقٍ ، وسخرتَ منّى أىَّ سخر

فلبثتُ مرضوضَ الفؤاد أجرُّ أجنحتى بذُعر . . .

وقسوْتَ إذ أبقيتنى فى الكون أذرَعُ كلَّ وعر

وفجعتنى فيمن أحب ، ومن إليْه أبثُّ سرى

وأعدُّه ، فجرى الجميلَ ، إذا أدلهمَّ علىَّ دهرى

وأعدُّه ، وَرْدِى ، ومزمارى ، وكاسانى ، وخمرى

وأعده ، غابى ، ومحرابى ، وأغنيتى ، وفجرى . . .

ورزأتنى فى عمدتى ، ومشورتى فى كل أمرٍ

وهدمتَ صرحاً ، لا ألوذ بغيره ، وهتكت سترى

ففقدتُ روحاً ، طاهراً ، شهماً ، يجيش بكل خير

وفقدتُ قلباً ، همُّه أن يستـوى فى الأفق بذرى

وفقدتُ كفًّا ، فى الحياة يصُدُّ عنِّى كل شر

وفقدتُ وجهاً ، لا يُعَبِّسه سوى حزَنى وضُرى

وفقدتُ نفساً ، لا تَنِي عن صون أفراحى وبشرى

وفقدت رُكنِي فى الحياة ، وَرابتَى ، وعمادَ قصرى

* * *

ياموت ! قد مزّقتَ صدرى

وقصمت بالأرزاء ظهـرى

ياموت ! ماذا تبتغى منِّى وقد مزّقتَ صـدرى ؟

ماذا تودُّ ، وأنت قد سوّدتَ بالأحزان فـكرى

وتركتنى فى الكائنات أئنُّ ، منفرداً بإصْرى

وأجوبُ صحراء الحياة ، أقول : « أينَ تُراهُ قبرى ؟ »

ماذا تَوَدُّ من المعذَّب فى الوجود بغير وِزْر ؟

ماذا تَوَدُّ من الشقىِّ بعيشه ، النكِدِ ، المُضِرّ ؟

إن كنتَ تطلبنى فهاتِ الكأسَ ، أشربُها بصبر

أو كنتَ ترقبنى فهاتِ السّهمَ ، أرشقه بنحرى

خذنى إليك ، فقد تبخَّرَ فى فضاء الهمِّ عُمرى . . .

وتهدَّلتْ أغصانُ أيامى ، بلا ثَمَرٍ وزهر

وتناثرتْ أوراق أحلامى على حسَك المر . . .

خذنى إليك ! فقد ظمِئتُ لكأسكَ ، الكدِرِ ، الأمرِّ . .

خذنى فقد أصبحتُ أرقُبُ فى فضاكَ الجوْنِ فجرى،
خذنى ، فما أشقى الذى يقضى الحياة بمثل أمرى . . .

* * *

ياموت ! قد مزّقتَ صدرى
وقصمتَ بالأرزاء ظهرى،
ياموت ! قد شاع الفؤاد ، وأقفرت عرصات صدرى،
وغدوت أمشى مطرقا من طول ما أثقلت فكرى،
ياموت ! نفسى ملّت الدنيا ، فهل لم يأت دورى،

إلى الله

تعرض لقلب الإنسان الذى لا تنتهى أطواره أزمات نفسية ثائرة ، يعصف فيها الألم والقنوط بكل حقائق الحياة ، وتتزعزع معها كل قواعد الإيمان، والحق والجمال ، فيشعر المرء كأنما أنبت مابينه وبين الكائنات من وشائج الرحم والقربى ، فأصبح غريبا فى هاته الدنيا الغريبة فى نفسه ، وكأنما الحياة فن من العبث المرعب الممل الذى لا يجدر بالعطف ولا بالبقاء . ولكن من رحمة الأقدار أنها حال عارضة لا تدوم إلا كما تدوم عاصفة البحر . تكدر صفاءه ، وتحيل جماله إلى شناعة . وأنغامه إلى عويل . وانسجامه إلى فوضى ، ثم تقر العاصفة وتسكن ويرجع البحر إلى زرقته الصافية ، وألحانه المتزنة . وجماله الساحر الأبدى — وتحت تأثير هاته الحالة النفسية الجامحة نظمت القصيد التالى ونفسى سكرى بأحزانها الدامية وآلامها المتشحة باللهيب .

يا إله الوجود ! هذى جراح في فؤادى ، تشكو إليك الدواهى .
هذه زفرة يُصَعِّدها الهمّ إلى مسمع الفضاء الساهى
هذه مهجة الشقاء تناجيك فهل أنت سامع يا إلهى ؟

***

أنتَ أنزلتنى إلى ظلمة الأرض وقد كنتُ فى صباحٍ زاه
كالشعاع الجميل ، أسبَحُ فى الأفْق وأصغى إلى خرير المياه
وأغنّى بين الينابيع للفجر وأشدو كالبلبل التيّاه
أنتَ أوصلتنى إلى سبل الدنيا وهذى كثيرة الاشتباه
ثم خلّفتَنى وحيداً ، فريداً بين داعٍ من الرياح وناه
أنتَ أوقفتنى على لُجّة الحزن وجرّعتنى مرارة « آه ! »
أنتَ أنشأتنى غريباً بنفسى بين قومى ، فى نشوتى وانتباهى
أنتَ كرّهتَنى الحياة وما فيها وحَبّبتَنى جُمودَ الساهى
أنتَ جَبّلتَ بين جنبيَّ قلبًا سرمديَّ الشعور والانتباه
عبقريَّ الأسى : تعذّبه الدنيا وتشجيه ساحرات الملاهى !
أنت عذّبتنى بدقّةِ حسّى وتعقّبتَنى بكل الدواهى
بالأسى ، بالسقام ، بالهم ، بالوحشة ، باليأس ، بالشقا المتناهى
بالمنايا تغتال أشهى أمانىَّ وتذوى محاجرى ، وشفاهى
فإذا منْ أحب حفنة تُرْب تافهٍ ، من ترائب وجباه
وإذا فتنةُ الحياة وسحرُ الكون ضَرْبٌ من الغمام الزاهى
يتلاشى فوق الخضم : ويبقى اليمُّ — كالعهد مُزْبِدَ الأمواه . . .

* * *

يا إله الوجود ! مالك لا ترثى لحزن المعذّب الأوّاه ؟
قد تأوّهتُ فى سكون الليالى ثم أطبقتُ فى الصباح شفاهى

وتغزّلتُ بالحياة ، وبالحبّ ، وغنّيتُ كالسـعيد اللاهى
وزرعتُ الأحلام فى قلبىَ الدامى ، وحوّطتها بكل انتباهى
ثم لما حصدت لم أجن إلاّ الشوكَ ، ماذا تُرى فعلتُ ؟ إلهى !

* * *

يا رياحَ الوجود ! سيرى بعنفٍ وتغنّىْ بصـوتك الأوّاه
وانفحينى من روحِكِ الفَخْم ما يُبلِغُ صوتى آذانَ هـذا الإله
فهو يُصغِى إلى القوىِّ ، ولا يُصغى لصوتٍ بين العواصف واه
وانثُرى الوردَ للسلوج بدَاداً واصعقى كلَّ بلبـل تيّاه
فالوجود الشقىُّ غير جدير بالأغانى ، وبالجمال الزّاهى
واسحقى الـكائنات كوْناً بكونٍ ، قبلَ أن تنتهى أذلَّ تناه
فالإله العظيم لم يخلق الدنيـا سـوى للفناء تحت الدواهى

* * *

يا ضمير الوجود ! يا عالمَ الأرواح ! يا أيها الفضاء الساهى !
يا خضمَّ الحياةِ ، يزخر فى الآفاق فى التراب ، فى قرار المياه !
خبّرونى ، هل للورى من إلهٍ ، راحمٍ — مثل زعمهم — أواه
يخلق الناسَ باسماً ، ويواسيهم ، ويرنو لهم بعطفٍ إلهى
ويرى فى وجودهم روحَه السـامى ، وآيات فنّـه المتناهى
إننى لم أجده فى هاته الدنيـا ، فهل خلف أفقها من إله ؟ !

* * *

ما الذى قد أتيتَ يا قلبيَ الباكى ؟ ! وماذا قد قلتِه يا شفاهى

يا إلٰهى ! قد أنطق الهمُّ قلبى بالذى كان . . ، فاغتفر يا إلٰهى !

قَدَمُ اليأسِ والكآبةِ داستْ قلبيَ المُتْعَبَ ، الغريبَ ، الواهى

فتشظّى ، وتلك بعضُ شظاياه . . ، فسامحْ قنوطَه المتناهى

فهو يا ربِّ معبدُ الحقِّ ، والإيمانِ والنورِ والنقاء الإلٰهى

وهو نايُ الجمالِ ، والحبِّ ، والأحلامِ ، لكن قد حطّمته الدواهى

النبي المجهول

أيها الشعب ! ليتني كنتُ حطّاباً   فأهوِي على الجذوع بفأسي !
ليتني كنتُ كالسيول ، إذا سالت   تهدُّ القبورَ : رمساً برمس !
ليتني كنت كالرياح ، فأطوي   كل ما يخنق الزهور بنحسي !
ليتني كنت كالشتاء ، أُغشّي   كلّ ما أذبلَ الخريفُ بقرسي !
ليت لي قوّةَ العواصف ، يا شعبي   فألقي إليك ثوْرَةَ نفسي !
ليتَ لي قوة الأعاصير ، إن ضجّتْ   فأدعوك للحيـاة بنبسي !
ليت لي قوة الأعاصير .. ! لكن   أنت حيٌّ ، يقضي الحياة برمس ..!
أنت رُوحٌ غَبيّةٌ ، تكره النُّورَ ،   وتقضي الدهورَ في ليْل مَلس ...
أنت لا تدركُ الحقائقَ إن طافتْ   حواليك دون مسٍّ وجس ...
في صباح الحياة ضمّخْتُ أكوابي   وأترعتُها بخمـرةِ نفسي ...
ثمّ قدّمتُها إليـكَ ، فأهرقْتَ   رحيقي ، ودُسْتَ ياشعبُ كأسي !
فتألّمْتُ .. ، ثُم أسكتُّ آلامي ،   وكفكفتُ من شعوري وحسي
ثم نضّدتُ من أزاهير قلبي   باقةً لمْ يَمَسّها أيّ إنسِي ...
ثم قدّمتُها إليـك ، فمزّقْتَ   ورودي ، ودُستَها أيَّ دوسِ
ثم ألبستَني من الحزن ثوباً   و بشوك الجبال توّجتَ رأسي

* * *

إنني ذاهبٌ إلى الغاب ، يا شعبي   لأقضي الحياةَ ، وحدي ، بيأسِ

إننى ذاهب إلى الغـاب ، علِّى في صميم الغابات أدفن بؤسى
ثم أنساك ماستطعتُ ، فما أنتَ بأهـلٍ لخمـرتى ولكأسى
سوف ألقى على الطيور أناشيدى ، وأفضى لهـا بأشـواق نفسى
فهى تدرى معنى الحياة ، وتدرى أنّ مَجْدَ النفوس يقظةُ حس
ثُمّ أقضى هناك ، فى ظلمة الليل ، وألقى إلى الوجـود بيأسى
ثم تحت الصَّنَوْبَرِ ، الناضرِ ، الحلو ، تخطُّ السـيول حفرةَ رمسى
وتظلُّ الطيور تلغو على قَبْرِى ويشـدو النسيمُ فوقى بهمس
وتظلُّ الفصـولُ تمشى حوالىّ ، كما كُنّ فى غضـارة أمسى

* * *

أيها الشعب ؟ أنتَ طفل صغير ، لاعبٌ بالتراب والليلُ مُغْس . !
أنتَ فى الكون قوةٌ ، لم تَسُسْها فكرةٌ ، عبقريّةٌ ، ذات بأس
أنت فى الكون قوةٌ ، كبّلتْها ظلماتُ العصور ، من أمس أمس . .
والشقىُّ الشقىُّ من كان مثلى فى حساسيّتى ، ورِقّةِ نفسى

* * *

هكذا قال شاعرٌ ، ناولَ الناسَ رحيقَ الحياة فى خـير كأس
فأشاحوا عنها ، ومرُّوا غضابا واستخفّوا به ، وقالوا بيأس :
« قد أضاع الرشاد فى ملعب الجن فيا بؤسـه ، أصيب بمسّ »
« طالما خاطبَ العواطفَ فى الليل وناجى الأموات فى غير رمس »
« طالما رافقَ الظلامَ إلى الغاب ونادى الأرواحَ من كل جنس »
« طالما حدّثَ الشياطين فى الوادى ، وغنّى مع الرياح بجَرْس »

«إنه ساحرٌ ، تعلَّمَه السِّحرَ الشياطينُ ، كلُّ مطلع سمس»
«فابعدوا الكافرَ الخبيثَ عن الهيكل إنَّ الخبيثَ منبعُ رجس»
«أطردوه ، ولا تُصيخوا إليه فهو روحُ ، شرِّيرةٌ ، ذات نحس»

* * *

هكذا قال شاعرٌ ، فيلسوفٌ ، عاش فى شعبه الغبيِّ بتعس
جَهِلَ الناس روحَه ، وأغانيها فساموا شعورَه سومَ بخس
فهو فى مذهب الحياة نبيء وهو فى شعبه مصابٌ بمس
هكذا قال ، ثمَّ سار إلى الغاب ، ليحيا حياةَ شعر وقدس
وبعيداً .. ، هناك .. ، فى معبد الغاب الذى لا يُظِلُّه أى بؤس
فى ظلال الصنوبر الحلو ، والزيتون يقضى الحياة : حرساً بحرس
فى الصباح الجميل ، يشدو مع الطير ، ويمشى فى نشوة المتحسِّى
نافخاً نايَه ، حواليه ، تهتزُّ وودُ الربيع من كلِّ فنس
شَعْرُه مُرْسَلٌ — تداعبه الريحُ على منكبيْه مثل الدمقس
والطيورُ والطِّرابُ تشدو حواليه وتغلو فى الدوح ، من كل جنس
وتراه عند الأصيل ، لدى الجدول ، يرنو الطائر المتحسِّى
أو يغنِّى بين الصنوبر ، أو يرنو إلى سُدْفَةَ الظلام الممسى
فإذا أقبَلَ الظلامُ ، وأمستْ ظلماتُ الوجود فى الأرض تُغسى
كان فى كوخه الجميل ، مقيماً يسأل الكون فى خشوع وهمس
عن مصبِّ الحياة ، أين مداه ؟ وصميم الوجود ، أيَّانَ يُرسى ؟

وأريجِ الورود في كلّ وادٍ ونشيدِ الطيور ، حين تمسّى
وهزيم الرياح ، في كل فجٍّ ورسوم الحياةِ من أمس أمس
وأغاني الرعاةِ أين يُواريها سكونُ الفضا ، وأيان تمسى ؟ ؟

* * *

هكذا يصرف الحياةَ ، ويُفنى حَلَقَاتِ السنين : حَرْساً بحرس
يالها من مَعيشةٍ في صميم الغاب تضحى بين الطيور وتمسى !
يالها من معيشة ، لم تُدنّسها نفوس الورى بخبث ورجس
يالها من معيشة ، هيَ في الكون حياة غريبة ، ذات قُدس

صفحة من كتاب الدموع

غنّاه الأمسُ ، وأطربه — وشجاه اليومُ ، فما غده ؟

قد كان له قلبٌ ، كالطفل ، — يدُ الأحلام تهدهده

مُذْ كان له مَلَكٌ في الكون — جميلُ الطلْعَة ، يعبده

في جَوْفِ الليل ، يناجيه — وأمامَ الفجر ، يمجده

وعلى الهضبات ، يغنّيه — آياتِ الحب ، ويُنشده

لولاه لما عَذُبَتْ في الكون مصادره وموارده

ولَمَا فاضتْ بالشِّعْر الحيِّ مشاعره وقصائده

تمشي في الغاب فتَتْبَعه — أفراح الُحبّ ، وتنشده

ويرى الآفاقَ فيُبْصِرها — زُمرًا في النّور ، تُراصده

ويرى الأطيارَ ، فيحسبُها — أحلامَ الحب تغرده

ويرى الأزهار ، فيحسبها — بَسماتِ الحب توادده

فيخال الكون يناجيه ! — وجمالَ العالم يسعده !

ونجومُ الليل تضاحكه ! — ونسيمَ الغاب يطارده !

ويخال الوردَ يداعبه — فرِحًا ، فتعابثه يده ! . .

ويرى الينبوعَ ، ونَضرتَه ، — ونسيمُ الصُّبح يجعِّده

وخريرُ الماء له نَغَمٌ — نسماتُ الغاب تردده

ويرى الأعشاب وقد سمقت بين الأشجار تشاهده .
ونطافُ الطّفل تُنمّقها فيجل « الحبَّ » ويحمده .

* * *

يا للأيام ! فكم سرّت قلبًا في الناس لتكمده
هي مثل العاهر ، عاشقها تسقيه الخمر . . ، وتطرده !
يعطيكَ اليومُ حلاوتَها كالشهد ، ليسلبَها غدُه !

* * *

بالأمس يعانقها فرِحًا ويضاجعُها ، فتوَسّده
واليومَ ، يُسايرها شبَحًا أضناه الحزنُ ، ونكّده
يتلو في الغاب مراثيَه وجذوعُ السَّرْوِ تساندُه .
ويماشي الناس ، وما أحد منهم بشجيه تفرُّده .
في ليل الوحشةِ مَسْراه وبكهف الوحدة مرقده .
أصوات الأمس تعذّبه وخيال الموت يُهدِّده .

* * *

بالأمس له شفَقٌ في الكون ، يضيء الأفْقَ توردُه .
واليومَ ، لقد غشّاه الليلُ فما في العالم يُسْعده
غنّاه الأمسُ وأطربه وشجاه اليوم ، فما غده ؟

شجون

عجباً لى ! أودُّ أن أفهَمَ الكونَ ، ونفسى لم تستطعْ فهم نفسى !
لم أفِدْ من حقائق الكون إلاّ أننى فى الوجود مُرْتادُ رمس
كلُّ دهر يمرُّ يفجع قلبى ليت شعرى ! أينَ الزمان المُؤَسِّى
فى ظلام الكهوف أشباحُ شؤمٍ وبهذا الفضاء أطيافُ نحس
وخلالَ القصور أنّاتُ حُزْنٍ وبتلك الأكواخ أنضاء بؤس !
والفضاء الأصمُّ يعتسف النـ ـاسَ ويقضى ما بين سيف وقوس !

* * *

هذه صورة الحيـاة ، وهذا لونُها فى الوجود ، من أمس أمس
صورةٌ للشقاء دامعة الطرف ولونٌ يسودُّ فى كل طِرس

إلى عذارى أفروديت :

(١) الجمال المنشود

يا عذارى الجمال ، والحب، والأحلام ، بل يا بهاء هـذا الوجود !

قد رأينا الشعورَ منسدلاتٍ كللت حسنَها صباحُ الورود

ورأينا الجفون تبسم . . ، أو تحلم بالنور ، بالهوى ، بالنشيد . . .

ورأينا الخدودَ ، ضرّجها السحرُ ، فآهاً من سحر تلك الخدود !

ورأينا الشفاهَ تبسم عن دنيا من الورد ، غضةٍ ، أملود .

ورأينا النهودَ تهتزُّ ، كالأزهار في نشوة الشباب السعيد .

فتنةٌ ، توقظ الغرام وتذكيه ، ولكن ماذا وراء النهود ؟

ما الذي خلف سحرها الحالم السكران، في ذلك القرار البعيد . . . ؟

أنفوس جميلةٌ ، كطيور الغاب تشدو بساحر التغريد

طاهرات ، كأنها أرجُ الأزهار في مولد الربيع الجديد ؟

وقلوبٌ مضيئة ، كنجوم الليل ضوّاعةٌ ، كغضّ الورود ؟

أم ظلامٌ ، كأنه قِطَعُ الليل ، وهولٌ يُشيبُ قلبَ الوليد .

وخِضَمٌّ ، يموج بالإثم والشكر ، والشر ، والظلال المديد ؟

لستُ أدرى ، فرُبَّ زهرٍ شذيٍّ قاتلٍ رغم حسنه المشهود :

صانكنَّ الإله من ظلمةِ الروح ومن ضِلةِ الضمير المَريد
إن ليلَ النفوس ليلٌ مُريعٌ سرمديُّ الأسى ، شنيع الخلود
يرزح القلب فيه بالألم المرّ ، ويشقى بعيشة المنكود
وربيع الشباب يُذبله الدهر ، ويمضى بحسنه المعبود
غير باقٍ فى الكون إلا جمال الرُّوح غضًّا على الزمانِ الأبيد

(٢) طريق الهاوية

ياعذارى الجمال، والحب، والأحلام ، بل يا بهاء هذا الوجود !
خلق البلبل الجميل ليشدو وخلقتنّ للغرام السعيد
والوجودُ الرحيبُ كالقبر ، لولا ما تُجَلِّينَ من قُطوب الوجود
والحياةُ التي تخرُّ لها الأحلامُ موتٌ مثقلٌ بالقيود ...
والشبابُ الحبيبُ شيخوخةٌ تسعى إلى الموت فى طريق كئود . . .
والربيعُ الجميلُ فى هاته الدنيا خريفٌ يُذوِى رفيفَ الورود ...
والورودُ العِذابُ فى ضفّة الجدول شوكٌ ، مُصفّحٌ بالحديد . . .
والطيورُ التي تُغنِّي ، وتقضى عَيْشَها فى ترنُّمٍ وغريد ؟
إنها فى الوجود تشكو إلى الأيّام عبء الحياة بالتغريد . . .
والأناشيد ؟ إنها شهقات تتشظّى من كل قلب عميد . . .

صُورةٌ للوجود شوهاء ، لولا شفَقُ الحسن فوق تلك الخُدود

***

يازهور الحياة ، للحب أنتنَّ ولكنه مُخيفُ الورود

فسبيلُ الغرام جمٌّ المهاوى وافرُ الهول ، مستراب الصعيد

رغمَ مافيه من جمالٍ ، وفنٍّ عبقريٍّ ، ما إنْ له من مزيد

وأناشيدَ ، تُسكرُ المَلأ الأعلى ، وتُشجى جوانحَ الجلمود

وأريجٍ ، يكاد يذهب بالألباب ما بين غامضٍ وشديد

وسبيلُ الحياة رحْبٌ ، وأنتن اللواتى نفرشنه بالورود

إن أردتُنَّ أن يكون بهيجاً رائع السحر ، ذا جمالٍ فريد

أو بشوكٍ ، يُدمِى الفضيلةَ والحبَّ ويقضى على بهاء الوجود

إن أردتُنَّ أن يكون شنيعاً ، مظلمَ الأفقِ ميِّتَ التغريد

الأشواق التائهة

ياصميمَ الحيـاة ! إنى وحيدٌ   مذاجٌ ، تائه . فأين شروقُكْ ؟
ياصميم الحياة ! إنى فوادٌ   ضائع ، ظامىءٌ . فأين رحيقك ؟
ياصميم الحياة ! قد وجمَ النّايُ   وغام الفضا . فأين بروقك ؟
ياصميم الحياة ! أين أغانيك !   فتحت النجوم يُصغِى مَشوقك.

* * *

كنتُ فى فجرك ، الموشّح بالأحلام ، عِطراً ، يُرفُّ فوق ورودِكْ
حالماً ، ينهل الضياء ، ويُصغى   لك ، فى نشوةٍ بوحى نشيدك.
ثُمّ جاء الدجى . . ، فأمسيتُ أوراقاً ، بدادًا ، من ذابلات الورود
وضباباً من الشذى ، يتلاشى   بين هول الدجى وصَمت الوجود.
كنتُ فى فجركَ المغلّف بالسحر ،   فضاء من النشيد الهادى.
وسحاباً من الرُؤى ، يتهادى   فى ضميـر الآزال والآباد.
وضياء ، يعانق العالَمَ الرحب ،   ويسرى فى كل خافٍ وباد.
وانقضى الفجرُ . . ، فانحدرتُ من الأفق تراباً إلى صميم الوادى،

* * *

ياصميم الحياة ! كم أنا فى الدنيا غريبٌ ! أشقى بغربة نفسى
بين قوم ، لا يفهمون أناشيدَ فؤادى ، ولا معانى بؤسى،

في وجودٍ مكبّل بقيودٍ ، تائهٍ في ظلام شكّ ونحس
فاحتضنّي ، وضُمّني لك — كالماضي — فهذا الوجودُ علّةُ يأسي.

* * *

لم أجد في الوجود إلا شقاء ، سرمديًّا ، ولذّةً ، مضمحلّة
وأمانيّ ، يُغرق الدمعُ أحلاها ، ويُفني يمّ الزمان صداها
وأناشيدَ ، يأكل اللهيبُ الدّامي مسرّاتِها ، ويُبقي أساها
وورودًا ، تموت في قبضة الأشواك . ماهذه الحياة المُملّة ؟ !
سأمٌ هـــذه الحياة مَعَادٌ وصباحٌ ، يكرُّ في إثر ليل
ليتني لم أفِدْ إلى هذه الدنيا ، ولم تسبح الكواكبُ حولي !
ليتني لم يعانق الفجر أحلامي ، ولم يلثم الضياء جفوني !
ليتني لم أزل — كما كنت — ضوءا ، شائعا في الوجود ، غيرَ سجين !

أحلام شاعر

ليت لى أن أعيش فى هــذه الدنيا سعيداً بوحـــدتى وانفرادى
أصرف العمر فى الجبال ، وفى الغابات ،
بين الصنـــوبر الميّـــاد
ليس لى من شواغل العيش مايصرف نفسى عن استماع فؤادى
أرقبُ الموتَ ، والحياةَ ، وأصغِى لحـديث الآزال والآباد
وأغنّى مع البلابل فى الغاب ، وأصغِى إلى خرير الوادى
وأناجى النجومَ والفجرَ ، والأطيارَ والنهـرَ ، والضياء الهادى
عيشةً للجمال ، والفن ، أبغيها بعيداً عن أمّتى وبلادى
لا أغنّى نفسى بأحزان شعبى فهو حىٌّ ، يعيش عَيْشَ الجماد !
وبحسبى من الأسى مابنفسى من طريفٍ مُسْتَحْدَثٍ ، وتِلاد
وبعيداً عن المدينة ، والناس ، بعيداً عن لغو تلك النوادى
فهو من معدن السخافة والإفك ومن ذلك الهُراء العادى
أين هُو من خريرِ ساقية الوادى وخفقِ الصدى ، وشدوِ الشادى
وحفيفِ الغصون ، نمّقها الطلُّ وهمسِ النسيمِ للأوراد !
هذه عِيشةٌ تقدّسها نفسى وأدعو لمجــدها ، وأنادى

قيود الأحلام

وأوَدُّ أنْ أحيا بفكرة شاعر ... فأرى الوجودَ يضيق عن أحلامى
إلاّ إذا قطّعتُ أسبابى مع الدنيا ... وعشتُ لوحدتى وظلامى
فى الغاب ، فى الجبل البعيد عن الورى ... حيث الطبيعة ، والجمال السامى
وأعيشُ عِيشَةَ زاهدٍ مُتَنَسِّكٍ ... ما إنْ تُدَنِّسه - الحياة - بذام
هَجَرَ الجماعةَ للجبال ، تورُّعًا ... عنها وعن بطش الحياة الدامى
تمشى حواليه الحيـاة كأنها ... الحلمُ الجميل ، خفيفةَ الأقدام
وتَخِرُّ أمـواج الزمان بهيبةٍ ... قدسيّةٍ ، فى يمّها المترامى
فأعيش فى غابى حياةً ، كلها ... للفنّ للأحلام ، للإلهـام
لـكننى لا أستطيع ، فإنّ لى ... أمًّا ، يصـدّ حنانُها أوهامى
وصِغارَ إخوانٍ ، يرون سلامهم ... فى الـكائنات معلّقًا بسلامى
فقدوا الأب الحانى ، فـكنتُ لضعفهم ... كهفًا يَصُدُّ غوائلَ الأيام
ويقيهم وَهَجَ الحياة ، ولفحَها ... ويذود عنهم شِرّةَ الآلام
فأنا المـكبّلُ فى سلاسلَ ، حيّةٍ ، ... ضحّيتُ من رأفى بها أحلامى
وأنا الذى سكَنَ المدينة ، مُـكرَهًا ... ومشى إلى الآتى بقلبٍ دامِ
يصغى إلى الدنيا السخيفةِ راغمًا ... ويعيش مثـل الناس بالأوهام
وأنا الذى يحيا بأرض ، قفرةٍ ... مدحوّةٍ للشكّ والآلام . . .

هجمتْ بِىَ الدنيا على أهوالها   وخِضمِّها الرحب ، العميق الطامى

من غير إنذارٍ فأحمل عُدَّتى   وأخوضه كالســابح العوّام

فتحطّمتْ نفسى على شــطآنه   وتأجّجتْ فى جــوّه آلامى

* * *

الويل فى الدنيـــا التى فى شرْعِها   فأْسُ الطّغام كريشةِ الرسام ؟

?

أرى هيكلَ الأيام يعلو ، مُشيّدًا   ولا بد أن يأتى على أسّــه الهدمُ

فيُصبِحَ ماقدْ شيّد اللهُ والورى   خرابًا ، كأنّ الــكلّ فى أمسه وهْمُ !

فقل لىَ : « ماجدْوَى الحياةِ وكرْبِها ،   وتلك التى تذوِى ، وتلك التى تنمو ؟ »

« وفوْجٍ ، تغذّيه الحياةُ لِبانَها ،   وفوْجٍ ، يُرى تحت التراب له ردم ؟ »

« وعقلٍ ، من الأضواء ، فى رأس نابغ   وعقلٍ ، من الظلماء ، يحمله فَدْم ؟ »

« وأفئدةٍ حسرى ، تذوب كآبة   وأفئدةٍ سكرى ، يرِفُّ لها النجم ؟ »

لِغمْس الورى ، شاء الإله وجودَهم   فكان لهم جهلٌ ، وكان لهم فهمُ !!

أنا أبكيك للحب

لستُ يا أمسىَ أبكيك المجـــــدِ أو لجاهْ
سلبته مـــــنِّىَ الدُّنيا ، وبزّتنى رداهْ
فأنا أحتقرُ المجـــدَ وأوهامَ الحيـــاهْ

* * *

أو لعُمْرٍ ، بلغتْ منـــه الليالى منتهاهْ
وتلاشتْ فى خضم الزّمَنِ الطاغى قواهْ
فأنا مازلت فى فجر شبابى أو ضُحـــاه

* * *

لا ، ولا أبكيكَ يا أمسى ، إذا ماقلت : « آهْ »
لنعيمٍ ، لم ينـــلْ قلبىَ منـــه مُشْتهاهْ
فبنُو الأيام فى الدنيا كما شـــاء الإلهْ

* * *

إنما أبكيك للحبِّ ، الذى كان بَهاهْ
يَملأ الدنيا فأنّى سرتُ فى الدُّنيا أراهْ
فإذا ما لاحَ فَجْرٌ ، كان فى الفجر سناهْ
وإذا غرّد طيرٌ ، كان فى الشّدْو صداهْ

وإذا ما ضاع عِطرٌ ، كان في العطر شذاهْ
وإذا ما رفَّ زهرٌ ، وكان في الزّهر صباهْ
فهو في الكون جمالٌ ، يملأُ الأُفقَ ضياهْ
وتُوَشّي هــذه الأكوانَ بالسِّحر رُؤاهْ
وهو في قلبي — الذي عانقه الفجرُ — إلهْ !
عبقريُّ السِّحرِ ، مِراحٌ وديعٌ في سماهْ
يَنْسِجُ الأحلامَ في قلبي بأضواء الحياهْ
ويُغنِّيني ، فأنسى في مسرّاتِ غناهْ
كلَّ ما في الكون من حزنٍ وأفراحٍ ، عَداهْ

سِرُّ النهوض

لا ينهض الشعبُ إلاّ حين يدفعه
عزمُ الحياة ، إذا ما استيقظتْ فيه
والحبُّ يخترق الغبراء ، مندفعاً
إلى السماء ، إذا هبَّتْ تناديه
والقيدُ يألفه الأمواتُ ، ما لبثوا
أمّا الحــياةُ فيُبْليها وتُبْليه

أبناء الشيطان

أيُّ ناسٍ هذا الورى ؟ ماأرى إلاّ برايا ، شقيّةً ، مجنونه

جبّلتْها الحياةُ في ثورة اليأسِ من الشرّ ، كيْ تُجَنْ جنونه

فأقامتْ له المعابدَ ، في الكون ، وصلّتْ له وشادت حصونه

* * *

كم فتاةٍ ، جميلةٍ ، مدحوها وتغنّوْا بها لكىْ يُسْقِطُوها

فإذا صانت الفضيلة عابوها ، وإن باعتْ الخنا عبدوها

أصبحَ الحسنُ لعنةً ، تهبط الأرض ، ليغوَى أبناؤُها وذووها

* * *

وشقيٍّ ، طاف المدينةَ ، يستجدى ليحيا ، فخيّبوه احتقارا

أيقظوا فيه نزعةَ الشرّ ، فانقضَّ على الناسِ فاتكاً جبّارا

يبذر الرُّعبَ في القلوبِ ، ويذكى — حيثما حلّ — في الجوانح نارا

* * *

ونبيء قد جاء للناس بالحق ، فكالوا له الشتائمَ كيلا

وتنادَوْا به : « إلى النار ! فالنار بروح الخبيث أحرى وأولى »

ثمّ ألقوه في اللهيب ، وظلّوا يملأون الوجودَ رُعبًا وهولا

* * *

وشعوبٍ ضعيفةٍ ، تتلظّى في جحيم الآلام عاماً فعاما
والقويُّ الظلومُ يَعْصِرُ من آلامها السُّودِ لَذّةً ومُدَاما
يتحسّاه ضاحكاً . . ، لا يراها خُلِقَت في الوجود إلاّ طعاما !

* * *

وفتاةٍ حسبتُها مَعْبَدَ الحبِّ ، فالفيثُ قلبَها مَاخُورا !
ونبيلٍ وجدته في ضياء الفجر قلبًا مُدَنَّسًا شرّيرا !
وزعيمٍ أحلّه النّاسُ حتى ظنَّ في نفسه إلٰهًا صغيرا !

* * *

وخبيثٍ ، يعيشُ كالفأسِ ، هدّامًا ، ليَعْلُو بينَ الخراب بناءه
وقميء ، يُطاوِلُ الجبَـــلَ العالِي ، ولله ما أشدَّ عباءه !
ودنيء ، تاريخُه في سِجِلِّ الشرِّ : إفكٌ ، وقِحَّةٌ ، ودناءه

* * *

كان ظنّي أنّ النفـوس كِبارٌ فوجدتُ النفوس شيئًا حقيرًا
لوّثتْهُ الحيـاةُ ثمّ استمرّتْ تبذرُ العالَمَ العريضَ شرورًا
فاحصدوا الشّوْكَ . . ، يابنيها وضِجُّوا
املأوا الأرض والسماء حبـــــورا

صلوات في هيكل الحب

عذبةٌ أنتِ كالطفولةِ، كالأحلام كاللحن، كالصباح الجديدِ
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء كالورد، كابتسام الوليد
يا لها من وداعةٍ وجمال وشباب مُنَعَّمٌ أملود!
يا لها من طهارةٍ، تبعثُ التقديسَ في مهجة الشقيِّ العنيد!...
يا لها رقَّةً تكادُ يَرفُّ الوَرْدُ منها في الصخرة الجلمود!
أيُّ شيء تُراكِ؟ هل أنتِ «فينيسُ» تهادتْ بين الورى من جديد
لتُعيدَ الشبابَ والفرح المعسولَ للعالم التعيسِ العميد!
أم ملاكُ الفردوس جاء إلى الأرض ليُحْيي روحَ السلام العهيد!
أنتِ...، ما أنتِ؟ رسمٌ جميلٌ عبقريٌّ من فنِّ هذا الوجود
فيكِ ما فيه من غموضٍ وعمقٍ وجمالٍ مُقدَّسٍ معبود
أنتِ. ما أنتِ؟ أنتِ فجرٌ من السحر تجلى لقلبيَ المعمود
فأراه الحياةَ في مونِق الحسن وجلَّى له خفايا الخلود
أنتِ روح الربيع، تختال في الدنيا فتهتزُّ رائعاتُ الورود
وتهبُّ الحياة سكرى من العطْر، ويدْوى الوجودُ بالتغريد
كلما أبصرتكِ عيناي تمشين بخطوٍ موقَّعٍ كالنشيد
خَفَقَ القلبُ للحياة، ورفَّ الزَّهرُ في حقل عمريَ المجرود

وانتشتْ روحىَ الـكئيبةُ بالحبِّ   وغنتْ كالبلبــل الغرِّيد.
أنتِ تُحيينَ فى فؤادىَ ما قد   مات فى أمسىَ السعيدِ الفقيد.
ونشيدين فى خرائب روحى   ما تلاشى فى عهدىَ المجدود.
من طموحٍ إلى الجمالِ إلى الفنِّ ،   إلى ذلك الفضـاء البعيـد
وتَبثُّين رقة الشوق ، والأحلامِ   والشدوِ ، والهوى ، فى نشيدى.
بعد أن عانقتْ كآبةُ أيّامى   فؤادِى ، وألجمتْ تغريدى
أنت أنشودة الأناشيد غناكِ   إلهُ الغناء ، رَبُّ القصـيد
فيكِ شبَّ الشبَّابُ ، وشحهُ السِّحْرُ   وشدوُ الهوى ، وعِطْرُ الورود
وتراءى الجمالُ ، يرقص رقصاً   قُدُسيًا ، على أغانى الوجود.
وتهادتْ فى أُفْقِ روحِكِ أوْزانُ   الأغانى ، ورقّةُ التغــريد
فتمايلتِ فى الوجود ، كلحْنٍ   عبقرىٍّ الخيـالِ حلوِ النشيد :.
خطواتٌ ، سكرانةٌ بالأناشيد ،   وصوتٌ ، كرجْعِ ناىٍ بعيد.
وقوامٌ ، يكاد ينطق بالألحان   فى كلِّ وقفةٍ وقعـود.
كلُّ شىءٍ موقّعٌ فيكِ ، حتّى   لَفْتَةُ الجيد ، واهتزازُ النهود
أنتِ . . ، أنتِ الحياةُ فى قدْسها السامى ، وفى سحرها الشجىِّ الفريد
أنتِ . . ، أنتِ الحياةُ ، فى رِقّةِ الفجر فى رونق الربيع الوليد.
أنتِ . . ، أنتِ الحياةُ ، كلَّ أوانٍ   فى رُواءٍ من الشباب ، جديد.
أنتِ . . ، أنتِ الحياةُ فيكِ وفى عينَيْـكِ آياتُ سحرها المَمْدُود.
أنتِ دنيا من الأناشيد والأحلام   والسحْر والخيـال المديد.

أنتِ فوقَ الخيال، والشعرِ، والفنِّ وفوقَ النُّهى وفوقَ الحدودِ
أنتِ قُدْسي، ومَعبدي، وصباحي، وربيعي، ونَشْوَتي، وخلودي.

* * *

يا ابنةَ النُّور، إنني أنا وَحدي مَن رأى فيكِ روعةَ المعبود
فدَعيني أعيشُ في ظلِّكِ العذبِ وفي قربِ حُسنكِ المشهود
عيشةً للجمال، والفنّ، والإلهام والطُّهر، والسَّنى، والسجود
عيشةَ الناسكِ البتُولِ يُناجي الرَّبَّ في نشوةِ الذُّهولِ الشديد
وامنحيني السلامَ والفرحَ الروحيَّ ياضَوْءَ فجريَ المنشود
وارحميني، فقدْ تهدَّمتُ في كونٍ من اليأس والظلام مَشيد
أنقذيني من الأسى، فلقد أمسيتُ لا أستطيعُ حملَ وجودي
في شعاب الزَّمان والموت أمشي تحت عِبْءِ الحياة جَمَّ القيود
وأماشي الورَى ونفسيَ كالقبرِ، وقلبي كالعالَم المهدود:
ظُلمَةٌ، ما لها ختامٌ، وهولٌ شائعٌ في سكونها الممدود.
وإذا ما استَخفَّني عَبَثُ الناس تبسَّمتُ في أسًى وجُمود.
بسمةً مُرَّةً، كأنِّيَ أستلُّ من الشَّوك ذابلاتِ الورود.
وانفخي في مشاعري مَرَحَ الدنيا وشُدِّي من عزميَ المجهود.
وابعثي في دمي الحرارة، علِّي أتغنَّى مع المُنى من جديد.
وأبُثُّ الوجودَ أنغامَ قلبٍ بُلبُليٍّ، مكبَّلٍ بالحديد

فالصباحُ الجميلُ يُنعشُ بالدِّفْءِ حياةَ المُحطَّم المكدود
أَنقذيني ، فقد سئمتُ ظلامي ! أَنقذيني ، فقد مللتُ ركودي !

* * *

آهِ يا زهرتي الجميلةُ لو تدرين ما جَدَّ في فؤادي الوحيد
في فؤادي الغريبِ تُخْلَقُ أكوانٌ من السحر ذات حسن فريد
وشموسٌ وضّاءةٌ ونجـــومٌ تنثر النورَ في فضاءٍ مديد
وربيعٌ كأنّه حُلُمُ الشاعرِ في سَكْرة الشباب السعيد
ورياضٌ لا تعرف الحلكَ الداجي ولا ثورةَ الخريف العتيد
وطيورٌ سحريةٌ تتناغى بأناشيدَ حلوةِ التغريد
وقصورٌ كأنها الشَّفَقُ المخْضوب أو طلعة الصــباح الوليد
وغيـــومٌ رقيقة تتهـادى كأباديدَ من نُثارِ الورود
وحياةٌ شــعريةٌ هي عندي صورة من حياة أهل الخلود
كلُّ هذا يشيده سحرُ عينيكِ وإلهامُ حسنك المعبـــود
وحرام عليكِ أن تهدمي ما شادهُ الحُسنُ في الفؤاد العميد
وحرام عليكِ أن تسحَقي آمـالَ نفسٍ تصبو لعيشٍ رغيد
منكِ ترجو سعادةً لم تجدها في حياة الورى وسحر الوجود
فالإلهُ العظيمُ لا يَرْجُمُ العَبْدَ إذا كان في جلال السجود

أراك

أراكِ ، فتخلو لدىّ الحياة ويملأ نفسى صباحُ الأملْ
وتنمو بصدرى وُرودُ عِذابٌ وتحنو على قلبىَ المشتعلْ
ويفتِننى فيكِ فيضُ الحياة وذاك الشّبابُ الوديعُ ، الثّمِل
ويفتننى سحرُ تلك الشفاه ترفرف من حولهن القُبَل
فأعبُدُ فيكِ جمالَ السماء ، ورقّةَ وَرْدِ الربيع ، الخضِل
وطُهْرَ الثلوج ، وسِحْرَ المروج مُوَشّحَةً بشعاع الطّفَلْ

***

أراكِ ، فأخْلَقُ خَلْقًا جديدا كأنّىَ لم أبلُ حربَ الوجودْ
ولم أحتمل فيه عِبئا ، ثقيلاً من الذكريات التى لا تَبيدْ
وأضغاثِ أيامىَ ، الغابرات وفيها الشقىُّ ، وفيها السعيدْ
ويغمُرُ روحِى ضياءٌ ، رفيقٌ تــكلله رائعــــاتُ الورود
وتُسْمِعُنِي هاته الـكائناتُ رقيقَ الأغانى ، وحُلْوَ النشيد
وترقص حولِي أمانٍ ، طِرابٌ وأفراحُ عُمرٍ خَلىّ ، سعيدْ

***

أراكِ ، فتخفقَ أعصابُ قلبي وتهتزُّ مثلَ اهتزاز الوترْ
ويُجرِي عليها الهوى ، في خُنُوٍّ أناملَ ، لُدْناً ، كرَطْبِ الزهر
فتخطو أناشيدُ قلبيَ ، سكرَى تغرِّدُ ، تحت ظِلال القمرْ
وتملأني نشوةٌ ، لا تُحَدُّ كأنِّيَ أصبحتُ فوقَ البشرْ
أوَدُّ بروحي عناقَ الوجودِ بما فيه من أنفسٍ ، أو شجر
وليلٍ يفرُّ ، وفجرٍ يكرُّ وغَيْمٍ ، يُوَشِّي رداء السحرْ

رثاء فجر

يا أيها الغاب ، المُنَمَّقُ بالأشعَّةِ والورودْ !
يا أيها النور النقيُّ ! وأيُّها الفجر البعيد !
أين اختفيتِ ؟ وما الذي أقصاكَ عن هذا الوجود
آهٍ ! لقد كانت حياتي فيك حالمةً ، تميد
بين الخمائل ، والجداول ، والترنم ، والنشيد
تُصغِي لنجواكَ الجميلةِ ، وهي أغنيةُ الخلود
ونعيش في كونٍ من النَفَلات ، فتَّانٍ ، سعيد
آهٍ ! لقد غنّى الصباحُ ، فَدَمْدَمَ الليلُ العتيد
وتألّق النجمُ الوضيءُ ، فأغْمَ الغيْمُ الركود
ومضى الردى بسعادتي ، وقضى على الحب الوليد

فكرة الفنان

عش بالشعور ، وللشعور ، فإنما ... دنياك كونُ عواطف وشعور
شِيدَت على العطفِ العميق، وإنها ... لتجفُّ لو شِيدت على التفكير
وتظلُّ جامدةَ الجمالِ ، كئيبةً ... كالهيكلِ ، المتهدِّم ، المهجور
وتظل قاسيةَ الملامحِ ، جَهْمَةً ... كالموتِ ، مُقْفِرَةً ، بغير سرور
لا الحبُّ يرقص فوقها متغنِّيا ... للناس ، بين جداولٍ وزهور
مُتَوَرِّدَ الوَجناتِ سكرانَ الخطا ... يهتزُّ من مُرَحٍ ، وفرْط حبور
متكلِّلاً بالوردِ ، ينثر للورى ... أوراقَ وردِ « اللَّذة » المنضور
كلاَّ ! ولا الفنُّ الجميلُ تظاهرٍ ... في الكون تحت غمامةٍ من نور
مُتَوَشِّحًا بالسِّحْر ، ينفخ نايَه الـ ... ـمشبوبَ بين خمائلٍ وغدير
أو يلمس العودَ المقدَّسَ ، واصفًا ... للموت ، للأيام ، للديجور
ما في الحياة من المسرة ، والأسى ... والسِّحْر ، واللَّذات ، والتغرير
أبدًا ولا الأملُ المُجَنَّحُ مُنْشِدًا ... فيها بصوت الحالمِ ، المحبور
تلك الأناشيد التي تَهَبُ الورى ... عزْمَ الشبابِ ، وغبطةَ العصفور

***

واجعل شعورَك ، في الطبيعة قائدًا ... فهو الخبير بتيهها المسحور
صَحِبَ الحياةَ صغيرةً ، ومشى بها ... بين الجماجم ، والدمِ المهدور

وبَدَا بها فوقَ الشواهِق ، باسمًا متفنّيا ، من أعصُرٍ ودهور
والعقلُ ، رغمَ مَشيبِه ووَقاره ، ما زال فى الأيام جدَّ صغير
يمشى .. ، فتصرعه الرياح ، فَينْثَنِى مُتوجِّمًا ، كالطائر المكسور
ويظلُّ يسألُ نفسه ، متفلسفًا مُتَنَطِّسًا ، فى خِفَّةٍ وغرور :
عمَّا تُحَجّبُهُ الكواكبُ خلفَها من سرِّ هذا العالَمِ المستور
وهو المهشَّمُ بالعواصف . . ! يالَهُ من ساذجٍ ، متفلسفٍ ، مغرور !

* * *

وافتحْ فؤادكَ للوجود ، وخلِّه لليمِّ للأمواج ، للديجور
للثلج تنثُرُهُ الزوابعُ ، للأسى للهول ، للآلام ، للمقدور
واتركه يقتحم العواصفَ ، هائمًا فى أفقها ، المتلبِّدِ ، المقرور
ويخوض أحشاء الوجود ، مُغامِرًا فى ليلها ، المتهيِّبِ ، المحذور
حتَّى تعانقه الحياةُ ، ويرتوى من ثغرِها المتأجِّجِ ، المسجور
فتعيشَ فى الدنيا بقلب زاخرٍ يقِظِ المشاعرِ ، حالمٍ ، مسحور
فى نشوةٍ ، صُوفيةٍ ، قدُسيةٍ هىَ خير ما فى العالَمَ المنظور

قلب الأم

يا أيها الطفلُ الذى قد كان كاللحن الجميلْ
والوردةِ البيضاءِ ، تعبَق فى غيابات الأصيل
يا أيها الطفلُ الذى قد كان فى هذا الوجودْ ،
فرِحًا ، يناجى فتنةَ الدنيا بمعسول النشيد
ها أنتَ ذا أطبقتْ جفنَيْكَ أحلامَ المَنونْ
وتطايرتْ زُمَرُ الملائكِ حولَ مضجعِكَ الأمينْ
ومضتْ بروحكَ للسماء عرائسُ النُّورِ الحبيبْ
يحمِلنَ تيجانًا ، مُذَهَّبَةً ، من الزَّهرِ الغريبْ
ها أنت ذا قد جَلَّلَتْكَ سكينةُ الأبدِ الكبيرْ
وبكتك هاتيك القلوبْ ، وضمَّكَ القبرُ الصغيرْ
وتفرَّق النـاسُ الذين إلى المقابر شيَّعوكْ
ونسُوكَ من دنياهُم ، حتى كأنْ لم يعرفوكْ
شغلتهمُ عنك الحياةُ ، وحربُ هذى الكائناتْ
إنَّ الحياةَ ـ وقد قضيتَ قُبَيْلَ معرفةِ الحياةْ ـ
بحرٌ ، قرارتُه الرَّدى ، ونشيدُ لُجَّته ، شَكاةْ
وعلى شواطئه القلوبُ تئنُّ ، داميةً عُراةْ

بحرٌ ، تجيشُ به العواصفُ فى العشيّةِ والغداةْ
وتُظِلّهُ سُحُبُ الظلام ، فلا سكونَ ولا إباةْ
نسِيَتكَ أمواجُ البُحَيْرةِ ، والنجومُ اللامعهْ
والبلبلُ الشادى ، وهاتيك المروجُ الشاسعهْ
وجداولُ الوادى النضيرِ برقصها وخريرها
ومسالكُ الجبل الصغير بعُشْبها وزُهورها
حتّى الرفاقُ . . ، فإنهم لبثوا مدًى يتساءلونْ
فى حيرةٍ مشبوبةٍ : « أين اختفى هذا الأمينُ ؟ »
لكنهم علِموا بأنك فى الليالى الداجيهْ
حملتكَ غيلانُ الظلام إلى الجبال النائيهْ
فنسُوكَ مثلَ الناس . . ، وانصرفوا إلى اللهوِ الجميلْ
بينَ الخمائلِ ، والجداولِ ، والروابى ، والسهولْ
ونسُوا وداعةَ وجهك الهادى ، ومنظرَكَ الوسيمْ
ونسُوا تَغنِّيكَ الجميلَ بصوتكَ الحلوِ ، الرخيمْ
ومضَوْا إلى المَرْجِ البهيج ، يطاردون طيورَهُ
ويُزحزِحون صُخورَهُ ، ويعابثون زهورَهُ
ويُشيِّدون من الرمال البيضِ ، والحصَبِ النضيرْ
غُرَفًا ، وأكواخًا تكلِّلُها الحشائشُ والزهورْ
ويُنضِّدون من الرُّبا ، بين التضاحك والحبور

طاقاتِ وردٍ ، آبدٍ ، تُزرى بأوراد القصور
يُلقونها فى النهر ، قرباناً لآلهة السرور
فتسير فى التيّار ، راقصةً على نَغَم الخرير
كلٌّ نسوكَ ، ولم يعودوا يذكرونكَ فى الحياةْ
والدّهر يدفنُ فى ظلام الموتِ حتى الذكرياتْ
إلا فؤاداً ، ظلَّ يخفقُ فى الوجود إلى لقائكْ
ويودُّ لو بَذَلَ الحياة إلى المنيّةِ ، وافتداكْ
فإذا رأى طفلاً بكاكَ ، وإنْ رأى شبَحًا دعاكْ
يُصغى لصوتك فى الوجود ، ولا يرى إلاَّ بهاكْ
يصغى لنغمتكَ الجميلةِ فى خرير الساقيه
فى رنّةِ المزمارِ ، فى لَغْوِ الطيور الشاديه
فى ضَجّةِ البحر المُجلجِل ، فى هَدير العاصفه
فى لجّة الغابات ، فى صوت الرعود القاصفه
فى نُغْيةَ الحمَل الوديع ، وفى أناشيد الرعاةْ
بين المُروج الخُضرِ والسَّفح المجلّلِ بالنباتْ
فى آهة الشاكى ، وضوضاءِ الجُموع الصاخبهْ
فى شهْقة الباكى يؤجّجُها نُواحُ النادبه
فى كلِّ أصواتِ الوجودِ : طَروبِها وكئيبها
ورخيمها ، وعنيفها ، وبغيضها ، وحبيبها

و يراك في صُوَرِ الطبيعة : حلوِها ، ودميمِها
وحزينها وبهيجها ، وحقيرِها وعظيمِها
في رقّة الفجرِ الوديعِ ، وفي الليالي الحالمهْ
في فتنة الشفقِ البديعِ ، وفي النجوم الباسمهْ
في رقصِ أمواجِ البُحيْرة تحت أضواء النجومْ
في سِحْرِ أزهارِ الربيع ، وفي تهاويل الغيوم.
في لَمْعة البرق الخَفُوق ، وفي هُوِيِّ الصاعقهْ
في ذِلّة الوادي ، وفي كِبْرِ الجبال الشاهقهْ
في مَشهَدِ الغاب الكثيبِ ، وفي الورود[1] العاويهْ
في ظُلْمة اللّيلِ الحزينِ ، وفي الكهوف العاريهْ
أعَرفتَ هذا القلبَ في ظلماءِ هاتيك اللحودْ ؟
هو قلبُ أمّكَ ، أمّكَ السَّكرَى بأحزانِ الوجود
هو ذلك القلب الذي سيَعيشُ كالشادي الضريرْ
يشدو بشكوى حزنِهِ الداجي إلى النفَس الأخير
لا ربّةُ النسيان ترحمُ حزنَه وترى شقاهْ
كلا ! ولا الأيامُ تُبْلِي في أناملها أساه
إلا إذا ضفرَتْ له الأقدارُ إكليلَ الجنون،
وغدا شقيًّا ضاحكاً ، تلهو بمرآه السنونْ
هو ذلك القلبُ الذي مهما تقلّبت الحياةْ
وتدفَّعَ الزمَنُ المُدَمْدِمُ في شِعابِ الكائناتْ

---

(1) الورود — جمع ورد : الأسد .

وتغنّتْ الدُّنيا ، وغرّد بلبلُ الغاب الجميلْ
سيظلُّ يعبُدُ ذكْرياتِكَ : لا يَمَلُّ ، ولا يميلْ
كالأرض : تمشى فوق تُربتها المسرّةَ ، والشبابْ
والليلُ ، والفجرُ المُجَنَّحُ ، والعواصفُ ، والسحابْ
والحبُّ تَنبتُ فى مواطِنه الشقائقُ ، والورودْ
والموتُ تُحْفَرُ — أينما يخطو — المقابرُ واللحودْ
وتمرُّ بين فجاجها اللّذات ، حالمةً ، تميدْ
سكرى . ، وأشواقُ الورى . ترنو إلى الأفُقِ البعيدْ ...
وتظلُّ ترقص للأسى ، للّهْوِ ، أشباحُ الدهورْ
حتّى يواريها ضبابُ الموت فى وادى الدُّثورْ
وتظلُّ تُورِقُ ، ثمَّ تُزْهِرُ ، ثمَّ ينشرها الصباحْ
للموتِ ، للشوكِ المُمَزِّقِ ، للجداول ، للرياحْ
بَسماتُ ثَغْرٍ ، حالمٍ ، يفترُّ فى سهْوِ السرورْ
وورودُ روْضٍ ، باسمٍ ، يُصغِى لألحان الطيور
وتظلُّ تخفقُ ، ثم تشْدُو ، ثم يطويها الترابْ
قُبَلٌ ، وأطيارٌ ، تغرِّدُ للحياةِ ، وللشبابْ
وتظلُّ تمشِى فى جِوَارِ الموتِ أفراحُ الحياةْ ! . .
ويغرِّدُ الشحرورُ ما بين الجماجم والرُّفاتْ
والأرضُ حالمةٌ : ، تغنِّى بين أسراب النجومْ
أنشودةَ الماضى البعيدِ ، وسُورةَ الأزَلِ القديمْ . . .

حديث المقبرة

« وهو حوارٌ فلسفيٌّ ، مَدَارُه الحياة »
« والموت ، والخلود والكمال . »

في ليلة مظلمة ، من ليالي الصيف ، خرج الشاعر بنفسه من القرية الصغيرة النائمة في سفح الجبل ، وفي ذلك السكون الشامل ، والظلام المركوم ، أخذ يمشي بين أشجار الزيتون المزهرة في مسلك منفرد ، ثم اعتلى تلك الربوة الصغيرة ، حيث كانت مدافن القرية وحيث ينام الموتى في صمت الدهور .

وبين القبور الخرساء الجاثمة تحت أضواء النجوم ، حيث يتحدث كل شيء بجلال الموت وتفاهة الحياة ، جلس الشاعر بأقدام متعبة ، ونفس ثائرة ، وأجفان قد أذبلتها الأحزان ، فطافت بنفسه الأحلام والأفكار والذكريات ، وتقلبت أمامه صور الموت وأمواج الحياة ، وتتابعت أمامه رسوم الأيام الكثيرة ، ما نام منها في قلب الأزل وما لم يزل ينمو في أحشاء الأبد الكبير ، وجاشت في قلبه هاته الصور والخواطر ، وعجت في صدره عجيج الأمواج الثائرة ، فألقاها إلى الليل في النشيد التالي :

أتفنى ابتسامات تلك الجفون ؟   ويخبو توهُّجُ تلك الخدود ؟
وتذوِي وُرَيْداتُ تلك الشفاه ؟   وتهوى إلى الترب تلك النهود ؟



وينهدُّ ذاك القــوامُ الرشيق وينحلُّ صــدرٌ ، بديعٌ ، وجيد
وتربدُّ تلك الوجوه الصِّباحُ وفتنةُ ذاك الجمـــــال الفريد
ويغبرُّ فرعٌ كجُنْح الظـلام أنيقُ الغدائر ، جعدٌ ، مديد
ويُصبحُ فى ظلمات القبـور هباءً ، حقيراً ، وتُرْباً ، زهيد
وينجاب سحرُ الغـرام القوىِّ وسُكْرُ الشباب ، الغرير ، السعيد

* * *

أتُطوَى سماواتُ هذا الوجود ؟ ويذهب هذا الفضاء البعيد ؟
وتهلك تلك النجومُ القُدامى ؟ ويهرم هــذا الزمان العهيد ؟
ويقضى صباحُ الحياة البديعُ ؟ وليلُ الوجود ، الرهيب ، العتيد ؟
وشمسٌ توشِّى رداء الغمام ؟ وبدرٌ يضىء ، وغيمٌ يجود ؟
وضوءٌ ، يرصِّع موجَ الغدير ؟ وسحْرٌ ، يطرِّز تلك البرود ؟
وبحرٌ فسيحٌ ، بعيد القرار ، يضجُّ ، ويدوى دوىَّ الوليد ؟
وريحٌ ، تمرُّ مرورَ المَلاك ، وتخطو إلى الغاب خطوَ الرعود ؟
وعاصفةٌ ، من بنات الجحيم ، كأنَّ صداها زئيرُ الأسود
تمجُّ ، فتدوِى حنايا الجبال وتمشى ، فتهوِى صخور النُّجود ؟
وطيرٌ ، تغنِّى خلال الغصون وتهتف للفجر بين الورود ؟
وزهرٌ ، ينمِّقُ تلك التلالَ وينهَلُ من كلِّ ضوء جديد ؟
ويعبَق منه أريجُ الغـــــرام ونفحُ الشباب ، الحيىِّ ، السعيد ؟

* * *

يسطو على الـكلّ ليلُ الفناء ليلهُو بها الموتُ خلفَ الوجود ...
ويذرها في الفَراغ المخيف كما تنثر الوردَ ريحٌ شرود
فيذصب يمٌ الحياة ، الخضمُّ ويخمد روحُ الربيع ، الولود
فلا يلثم النورُ سِحْرَ الخدود ولا تُنْبِتُ الأرضُ غضّ الورُود ؟

* * *

كبيرٌ على النفس هذا الفناء ! وصعبٌ على القلب هذا الهمود !
وماذا على القَـدَر المستمرّ لو استمرأ الناسُ طعمَ الخلود
ولم يُخْفَروا بالخرابِ المحيط ولم يُفْجَعوا في الحبيب الودود
ولم يَسلـكوا للخـلود المرجَّى سبيلَ الرَّدى ، وظلامَ اللحود
فدامَ الشبابُ ، وسحرُ الغرام ، وفنُّ الربيعِ ، ولطفُ الورود
وعاش الورى في سلامٍ ، أمين وعيشٍ ، غضيرٍ ، رخيٍّ ، رغيد ؟
ولـكنْ هو القـدرُ المستبدُّ يَلذُّ له نوْحُنا ، كالنّشيد !

* * *

وكانت بين القبور روح فيلسوف قديم مجهول
فجاءت تزور جسمها الذى أصبح رمة بالية فى أحشاء
التراب ، فأشفقت على الشاعر المسكين من آلامه
الروحية وحيرته الظامئة ، فأرادت أن تعلمه الحكمة
وتسكب فى قلبه برد اليقين فخاطبته بهاته الأبيات :

تبرّمتَ بالعيش خوف الفناء ولو دمتَ حيًّا سئمتَ الخلود
وعشت على الأرض مثل الجبال جليلاً ، رهيبًا ، غريبا ، وحيد

فلم ترتشف من رضاب الحياة ولم تصطبح من رحيق الوجود
ولم تدر ماقتنة الكائنات وما سحر ذاك الربيع الوليد
وما نشوة الحب عند المحب وما صرخة القلب عند الصدود
ولم تفتكر بالغد المستراب ولم تحتفل بالمرام البعيد
وماذا يُرجَّى ربيب الخلود من الكونِ ـ وهو المقيم البعيد ـ ؟
وماذا يودُّ ، وماذا يخافُ من الكونِ ـ وهو المقيم الأبيد ـ ؟
تأمَّلْ . . ، فإنَّ نظام الحياة نظام ، دقيق ، بديع ، فريد
فما حبَّبَ العيش إلاَّ الفناء ولا زانه غيرُ خوف اللحود
ولولا شقاء الحياة الأليم لما أدركَ الناسُ معنى السعود
ومن لم يرُعْه قطوبُ الدياجيرِ لم يغتبطْ بالصباحِ الجديد

* * *

وراق حديث الروح الشاعر العائش بين الهواتف
والأشباح ، فقال يحاورها :

إذا لم يكن من لقاء المنايا مناصٌ لمن حلَّ هذا الوجود
فأيُّ غناء لهذى الحياة وهذا الصراع ، العنيف ، الشديد
وذاك الجمال الذى لا يُمَلُّ وتلك الأغانى ، وذاك النشيد ؟ ؟
وهذا الظلام ، وذاك الضياء وتلك النجوم ، وهذا الصعيد
لماذا نمر بوادى الزمان سراعًا ، ولكننا لا نعود
فنشرب من كل نبعٍ شرابًا ومنه الرفيع ، ومنه الزهيد

ومنه اللذيذ ، ومنه الكريه ، ومنه المُشيد ، ومنه المُبيد .
وتحمل عِبئاً من الذكريات وتلك العهود التي لا تعود .
ونشهد أشكال هذي الوجوه وفيها الشقي ، وفيها السعيد .
وفيها البديع ، وفيها الشنيع ، وفيها الوديع ، وفيها العنيد .
فيُصبح منها الوليُّ ، الحميم . ويصبح منها العدو ، الحقود .
وكلٌّ — إذا ماسألنا الحياةَ — غريبٌ لعمرى بهذا الوجود .
أتيناه من عالَمٍ ، لا نراه فُرادى، فما شأنُ هذى الحُقود ؟
وما شأنُ هذا العداء العنيفِ ؟ وما شأن هذا الإخاء الودود ؟

***

روح الفيلسوف :

خلقنا لنبلغ شأو الكمال ونصبح أهـلا لمجد الخلود
وتطهر أرواحنـا فى الحيـاة بنار الأسى . . . . (١)
ونكسب من عثرات الطريق قوًى ، لا تُهدُّ بدأْب الصعود
ومجداً ، يكون لنـا فى الخلود أكاليلَ من رائعات الورود .

***

ومر بالمقبرة سرب من الأرواح ، فى طريقها
إلى العالم المجهول ؛ فطارت معها روح الفيلسوف .
وخلقت عالم الشك والكآبة لأبنائه البائسين . وظل
الشاعر يردد بينه وبين نفسه :

« خلقنا لنبلغ شأوَ الكمالِ ونُصبح أهـلاً لمجد الخلود » .

---

(١) بياض بالأصل والمسودة .

ولكن أفكاره الثائرة التي لا تهدأ كانت لا تزال تلح عليه بالأسئلة الكثيرة المرهقة فقال يناجي روح الفيلسوف التي حسبها مازالت قريبة منه :

ولكن إذا ما لبسنا الخلود ... ونلنا كمال النفوس البعيد
فهل لا نمل دوام البقاء ؟ ... وهل لا نود كمالا جديد
وكيف يكون هذا « الكمال » : ... ماذا تراه ؟ وكيف الحدود ؟
وإن جمال « الكمال » « الطموح » ... ومادام « فكرا » يرى من بعيد
فما سحره إن غدا « واقعا » ... يحس ، وأصبح شيئا شهيد ؟
هل ينطفي في النفوس الحنين ... وتصبح أشواقنا في خمود
ألا تطمح النفس فوق الكمال ... وفوق الخلود لبعض المزيد ؟
إذا لم يزل شوقها في الخلود ... فذاك لعمرى شقاء الجدود
وحرب ، ضروس ، — كما قد عهدت —
ونصر ، وكسر ، وهم مديد
وإن زال عنها فذاك الفناء ... وإن كان في عرصات الخلود

* * *

كذلك ناجى الشاعر روح الفيلسوف ، ولكنها كانت إذ ذاك بعيدة عنه في عالم بعيد لا يسمع نجواه ، وكذلك ضاعت أسئلة الشاعر في ظلمة الليل الذي لا يسمع ولا يجيب .

في ظل وادي الموت

نحن نمشي ، وحولنا هاته الأكوا
ن تمشي . . ، لكن لأية غايه ؟

نحن نشدو مع العصافير للشمس ،
وهذا الربيع ينفخ نايه

نحن نتلو رواية الكون للموت
ولكن ماذا ختام الروايه

هكذا قلت للرياح فقالت :
« سل ضمير الوجود : كيف البداية . ؟ »

* * *

وتغشى الضباب نفسي ، فصاحت
في ملال مُرّ : « إلى أين أمشي ؟ »

قلت : « سيري مع الحياة . . » فقالت :
« ما جنينا ، ترى ، من السير أمس ؟

فتهافتُّ كالهشيم — على الأرض
وناديت : « أين يا قلب رفشي ؟ »

« هاته ، على أخط ضريحى »

« فى سكون الدجى وأدفن نفسى »

***

« هاته فالظلام حولى كثيف . . . »

« وضباب الأسى منيخ عليّا . . . »

« وكؤوس الغرام أترعها الفجر ، »

« ولكن تحطّمت فى يديّا . . . »

« والشباب الغرير ولّى إلى الماضى »

« وخلّى النحيب فى شفتيّا ، »

« هاته ، يافؤاد إنا غريبان ، »

« نصوغ الحياة فنّا شجيّا . . . »

***

« قد رقصنا مع الحياة طويلا . . . »

« وشدونا مع الشباب سنينا . . . »

« وعدونا مع الليالى حفاة . . . »

« فى شعاب الحياة حتى دمينا . . . »

« وأكلنا التراب حتّى مللنا . . . »

« وشربنا الدموع ، حتّى روينا . . . »

« ونثرنا الأحلامَ والحبَّ والآلامَ ... »

« واليأسَ ، والأسى ، حيث شِينا .. »

* * *

« ثم ماذا ؟ هذا أنا : صرتُ في الدنيا »

« بعيداً عن لهـــوها وغِناهـا »

« في ظلام الفنـاء ، أدفن أيـامى ، »

« ولا أستطيع حتى بكاها ؟ »

« وزهورُ الحيـاة تهوى ، بصَمتٍ »

« مُحْزِنٍ ، مُضجرٍ ، على قدميّا ، »

« جَفَّ سحر الحياة ، يا قلبيَ البا كى ، »

« فهيّـا ، نجرب الموت . . ، هيّـا . . ! »

الساحرة

راعها منه صمتُه ووُجُومُه وشجاها شُحوبُه وشُحومُه
فأمرّتْ كفًّا على شَعْره العارى برفق ، كأنها ستُنيمُهْ
وأطلّتْ بوجهها الباسم الحلو على خدّه وقالتْ تلومُهْ :
« أيها الطائر الكئيب تغرّدْ إنّ شَدْوَ الطيور حلوٌ رخيمُهْ »
« وأجبْنِى فدتك نفسىَ - ماذا ؟ أمصابٌ ؟ أم ذاك أمرٌ ترومه ؟ »
« بل هو الفنُّ واكتئابُه ، والفنّان جمٌّ أحزانُه وهمومه »
« أبدًا يحمل الوجود بما فيه كأنْ ليس للوجود زعيمُهْ : »
« خل عبء الحياة عنك ، وهيّا بمحيّا ، كالصبح ، طلقٍ أديمُهْ »
« فكثير عليك أن تحمِلَ الدنيا وتمشى بوقرها لا تَريمه »
« والوجود العظيم أقعِدَ فى الماضى وما أنت ربُّه فتقيمه »
« وامش فى روضة الشباب طروبًا لخواليك وَرْدُه وكرومه »
« واتلُ للحب والحياة أغانيك وخلِّ الشقاء تَدْمَى كلومه »
« واحتضنّى ، فإننى لكَ ، حتى يتوارى هذا الدجى ونجومه »
« ودع الحبّ يُنشدُ الشعر لليل ، فكم يُسكر الظلامَ رنيمُهْ . . . »
« واقطف الورد من خدودى ، وجيدى ونهودى . . ، وافعل به ما ترومه »
« إن للبيت لهوَه ، الناعمَ الحلوَ وللكون حربُه وهمومُهْ »

« وارتشفْ من فمي الأناشيدَ سَكْرَى ، فالهوى ساحرُ الدلالِ ، وَسِيمهُ »
« وانسَ فيَّ الحياةَ . . ، فالعمرُ قفرٌ ، مرعبٌ إنْ ذَوَى وجفَّ نسيمهُ »
« وارْمِ لليــل ، والضبابُ بعيدًا فَتْكَ العابسَ ، الكثيرَ وُجومه »
« فالهوى ، والشبابُ ، والمرح المعـ ـسولُ تشـدو أفنانُه ونسيمه »
« هي فنُّ الحياة ، ياشاعري الفنَّانَ بل لُبُّ فنِّهـا وصَميمُهْ »
« تلك يافيلسوفُ ، فلسفة الـكوْ ن ، ووَحْيُ الوجودِ هذا قديمه »
« وهي إنجيلىَ الجميلُ ، فصدِّقْه وإلاَّ . . ، فللغرام جحيمه . . »
فرماهـا بنظرة ، غَشِـيَتْها سكرةُ الحُبِّ ، والأسى وغيومُهْ
وتلاها ببسمة ، رشـفتها منه سكرانةُ الشباب ، رؤومُهْ
والتقتْ عندها الشفاهُ . . ، وغنّتْ قُبَـلٌ ، أجفلتْ لديهـا همومُهْ
ما تريد الهمومُ من عالَمٍ ، ضاءت مسرَّاتُه ، وغنَّتْ نجومُهْ ؟

* * *

ليلةٌ أسبلَ الغـرامُ عليهـا سحرَه ، الناعمَ الطريرَ نعيمُهْ
وتَغنَّى في ظلّها الفرَحُ اللاهي فجفَّ الأسى وخرَّ هشيمُهْ
أغرق الفيلسوفُ فلسفة الأحـ ـزان في بحرها . . ، فَمَنْذا يلومُهْ

* * *

إن في المرأةِ الجميلةِ سحرًا عبقريًا ، يذْكي الأسى ، ويُنيمُهْ

قال قلبي للإله

في جبال الهموم ، أنبتُّ أغصاني | فرفَّتْ بين الصخور بجَهْد
وتَغَشَّتْنِيَ الضبابُ . . ، فأورقتُ | وأزهرتُ للعواصف ، وحدي
وتمايلتُ في الظلام ، وعطّرتُ | فضاء الأسى بأنفاس وردي
وبمجد الحياةِ ،والشوقِ غنَّيتُ..، | فلم تفهم الأعاصيرُ قصدي
ورمَتْ للوهاد أفنانيَ الخضرَ ، | وظلّتْ في الثَّلج تحفر لحدي
ومضتْ بالشذى فقلت : « ستبنى | في مروج السماء بالعِطْر مَجْدي »
وتغزَّلتُ بالربيع ، وبالفجر | فماذا ستفعل الريح بعدي ؟

متاعب العظمة

إذا صغرت نفسُ الفتى كان شوقه | صغيراً ، فلم يتعب ، ولم يتجشمِ
ومن كان جبَّارَ المطامع لم يزَلْ | يلاقي من الدنيا ضراوةَ قَشْعمِ

الجنّة الضائعة

كَمْ من عُهودٍ عذبةٍ فى عَدْوَةِ الوادى النضيرْ

فضِّيّةِ الأسحار مُذْهَبَةِ الأصائل والبكور

كانت أرقّ من الزهور ، ومن أغاريد الطيور

وألذّ من سحر الصِّبا فى بَسْمَةِ الطفل الغرير

قضيتها ومعى الحبيبةُ لا رقيب ولا نذير

إلاّ الطفولة حولنا تلهو مع الحبِّ الصغير

أيام كانت للحياة حلاوة الروض المطير

وطهارةُ الموج الجميل ، وسِحْرُ شاطئه المنير

ووداعة العصفور ، بين جداول الماء النمير

أيامَ لم تعرف من الدُّنيا سوى مَرَحِ السُّرور

وتَتَبُّعِ النحْل الأنيقِ وقَطْفِ تيجان الزهور

وتسلُّقِ الجبلِ المكلّل بالصَّنَوْبَر والصخور

وبناء أكواخ الطفولة تحت أعشاش الطيور

مسقوفةً بالورد ، والأعشاب ، والورق النضير

نبنى ، فتهدمها الرياحُ ، فلا نضجُّ ولا نثور

ونعود نضحك للمروج ، وللزَّنابقِ ، والغدير

ونخاطب الأصداء ، وهى ترفُّ فى الوادى المنير
ونعيد أغنية السواقى ، وهى تلغو بالخرير
ونظلّ نركض خلف أسراب الفَراش المستطير
ونمرُّ مابين المروج الخضر ، فى سكر الشعور
نشدو ، ونرقصُ — كالبلابلِ — للحياة ، وللحبور
ونظل ننثرُ للفضاء الرَّحْبِ ، والنهرِ الكبير
مافى فؤادَيْنا من الأحلام ، أو حُلْوِ الغرور
ونَشِيدُ فى الأُفُق المخضَّب من أمانينا قصور
أزهى من الشفَقِ الجميل ، وروْنقِ المَرْج النضير
وأجلّ من هذا الوجود ، وكلّ أمجاد الدهور
أبداً ، تُذَلِّلُنا الحياةُ بكلِّ أنواع السرور
وتبثُّ فينا من مراح الكون ما يُغوى الوقور
فنسيرُ ، نَنْشُد لهوَنا المعبودَ — فى كل الأمور
ونظل نعبث بالجليل من الوجود ، وبالحقير :
وبالسائل الأعمى وبالمعتوهِ ، والشيخِ الكبير
بالقطة البيضاء ، بالشاة الوديعة ، بالحمير
بالعشب ، بالفنن المنوّر ، بالسنابل ، بالشعير
بالرمل ، بالصخر المحطّم بالجداول ، بالغدير
واللهوُ ، والعبثُ البرىء ، الحلوُ ، مطمحُنا الأخير

ونظل نقفز ، أو نزثر ، أو نغنى ، أو ندور

لا نسأم اللهوَ الجميلَ ، وليس يدركنا الفتور

فكأننا نحيا بأعصـــــاب من المرَح المُثير

وكأننا نمشى بأقدامٍ مجنَّحة ، تطـــــير

أيام كنا لُبَّ هذا الكون ، والباقى قشور

أيام تفرشُ سُبْلَنا الدنيا بأوراق الزهــــور

وتمرُّ أيامُ الحياة بنا ، كأسراب الطُّيور

بيضاء لاعبــــــةً ، مُغرِّدةً مجنَّحةً بنور

وتُرَفرِف الأفراحُ فوق رؤوسنا أنَّى نســير

* * *

آهٍ ! توارى فَجْرِىَ القُدْسِىُّ فى ليل الدهور

وفنَى ، كما يفنَى النشيدُ الحلوُ فى صمت الأثير

أوّاهُ ، قد ضاعت على سعادةُ القلب الغرير

وبقيتُ فى وادى الزمان الجَهْمِ أدأبُ فى المسير

وأدوسُ أشواك الحياة بقلبىَ الدامى الكسير

وأرى الأباطيل الكثيرةَ ، والمآثم ، والشرور

وتصادُمَ الأهواء بالأهواء فى كل الأمور

ومَذَلَّةَ الحقِّ الضعيف ، وعزَّةَ الظلم القدير !

وأرى ابنَ آدمَ سائراً فى رحْلَةِ العُمْرِ القصير

ما بينَ أهوال الوجودِ ، وَتحتَ أعباء الضّمير
متسلّقاً جَبَلَ الحياةِ الوعْرَ ، كالشَّيخ الضّرير
دامى الأكُفِّ ، مُمَزّقَ الأقدَامِ ، مُغْبَرّ الشعور
مُترنّح الخطواتِ ما بين المزالق والصّخور
هالتهُ أشباحُ الظلامِ ، وراعهُ صوتُ القبور
ودوىُّ إعصار الأسى ، والموت ، فى تلك الوُعورْ

* * *

ماذا جنيتُ من الحياة ومن تجاريب الدُّهور
غيرَ الندامةِ والأسى واليأسِ والدمعِ الغزير ؟
هذا حَصادى من حقول العالَمِ الرّحْبِ الخطير
هذا حَصادى كلُّهُ ، فى يقظة العُمْرِ الأخير

* * *

قد كنتُ فى زمنِ الطفولةِ ، والسذاجةِ ، والطهور
أحيا كما تحيا البلابلُ ، والجداولُ ، والزّهور
لا نحفـــل ، الدنيا تدور بأهلها ، أو لاتدور
واليومَ أحيا مُرْهَقَ الأعْصاب ، مشبوبَ الشعور
مُتأجّجَ الإحساسِ ، أحفلُ بالعظيمْ ، وبالحقير
تمشى على قلبى الحياةُ ، ويزحَفُ الكونُ الكبير
هذا مصيرى ، يالبنى ، فما أشقى المصير !

السَّعَادَة

تَرجو السعادةَ ياقلبي ولو وُجِدَتْ ... في الكونِ لم يشتعلْ حُزْنٌ ولاألَمُ
ولا استحالتْ حياةُ الناسِ أجمعُها ... وزُلزلتْ هاتِهِ الأكوانُ والنُّظُمُ
فما السعادة في الدُّنيا سوى حُلُمٍ ... ناء تُضَحِّي له أيّامها الأُمَمُ
ناجتْ به الناسَ أوهامٌ مُعَرْبِدَةٌ ... لمَّا تَغَشَّتْهُمُ الأحلامُ والظُّلَمُ
فَهَبَّ كُلٌّ يُناديهِ ويَنْشُدُهُ ... كأنّما الناسُ ماناموا ولا حَلُمُوا[1]

* * *

خُذ الحياةَ كما جاءتك مبتسماً ... في كفِّها ، الغارُ أو في كفِّها العدم
وارقصْ على الوَرْدِ والأشواكِ مُتَّئِداً ... غنَّتْ لك الطيرُ ، أوغنَّت لك الرُّجُمُ
واعملْ كما تأمُرُ الدُّنيا بلا مَضَضٍ ... والجِمْ شُعورَكَ فيها ، إنها صَنَمُ
فَمَنْ تألّمَ لم تَرْحَمْ مضاضتَهُ ... ومَنْ تجلّدَ لم تَهْزأ به القِمَمُ
هذي سعادةُ دُنيانا ، فكن رجُلاً ... إن شِئتَها ـ أبَدَ الآبادِ ـ يبتسم !
وإنْ أردتَ قضاء العيش في دَعَةٍ ... شِعْرِيَّةٍ لا يُغَشّي صَفْوَها ندَم
فاترُكْ إلى الناس دُنياهم وضجَّتَهمْ ... وما بنَوْا لنظام العيْش أو رَسَمُوا
واجعلْ حياتكَ دَوْحاً مُزْهِراً نَضِراً ... في عزلةِ الغابِ يَنْمو ثم يَنْعَدِمُ
واجعل لياليك أحلاماً مُغرِّدةً ... إن الحياةَ وما تَدوِي به حُلُمُ !

---

(١) حلم : كان ذا حلم ، أي ذا عقل .

مِنْ أغاني الرعاة

حل الشاعر صيفا بعين دراهم «من الشمال التونسى» مستشفيا . وهناك فوق الطبيعة العذراء الساحرة والغابات الملتفة الماثلة ، والجبال الشم المجللة بالسنديان قضى عهدا شعريا ، وادعا ، خالصا للشعر ، والسحر والاحلام . وفى القصيد التالى صورة صغيرة من صور الحياة بين تلك الجبال ، والأودية والغابات .

أقبلَ الصُّبحُ يُغنِّى للحياةِ الناعسـهْ
والرُّبى تحلمُ فى ظلِّ الغصونِ المائسهْ
والصَّبا تُرقص أوراقَ الزهور اليابسـهْ
وتَهادَى النُّورُ فى تلك الفِجاج الدامسهْ

* * *

أقبلَ الصبحُ جميلاً ، يملأُ الأفقَ بهاهْ
فتمطَّى الزهرُ ، والطيْرُ ، وأمواجُ المياهْ
قد أفاقَ العالمُ الحيُّ ، وغنَّى للحيـاهْ
فأفيقى ياخِرافى ، وهلمِّى ياشِـياهْ

* * *

واتبعينى ياشِياهى ، بين أسراب الطيورْ
واملأ الوادى ثُغاءً ، ومِراحا وحبـورْ

واسمعى همس السواق ، وانشقى عطرَ الزهورْ
وانظرى الوادى ، يغشّيه الضبابُ المستنيرْ

* * *

واقطفى من كلإ الأرض ، ومَرعاها الجديدْ
واسمعى شبّابتى تشدو ، بمعسول النشيدْ
نَغَمٌ يَصْعَدُ مِنْ قلبى ، كأنفاسِ الورودْ
ثم يَسْمُو طائرًا ، كالبلبلِ الشادى السعيدْ

* * *

وإذا جئنا إلى الغابِ ، وغَطّانا الشجرْ
فاقطفى ماشئتِ من عُشْبٍ ، وزَهْرٍ وثَمَرْ
أرْضَعَتْهُ الشمسُ بالضوءِ ، وغَذّاهُ القمَرْ
وارتوَى من قَطَراتِ الطَّلِّ ، فى وَقْتِ السَّحَرْ

* * *

وامرَحِى ماشئتِ فى الوديان ، أو فوقَ التلالْ
واربضى فى ظلها الوارف ، إنْ خِفتِ الكلالْ
وامضغى الأعشابَ ، والأفكار فى صمت الظلالْ
واسمعىَ الريحَ تُغَنّى ، فى شماريخِ الجبالْ

* * *

إن فى الغاب أزاهيرًا ، وأعشابًا عِذابْ :
يُنشِدُ النّحْلُ حواليْها ، أهازيجًا طِرابْ
لم تُدَنِّسْ عِطرَها الطاهرَ أنفاسُ الذئابْ :
لا ، ولا طَافَ بها الثعلبُ فى بعضِ الصِّحابْ !

* * *

وشذًا حلوًا ، وسِحرًا ، وسَلامًا ، وظِلالْ
ونَسيمًا ساحِرَ الخطوةِ ، موفورَ الدلالْ
وغصونًا يَرْقُصُ النورُ عليها ، والجمالْ
واخضرارًا أبديًّا ، ليس تمْحُوه الليالْ

* * *

لن تَمَلّى ، ياخرافى ، فى حمى الغاب الظليلْ
فزمانُ الغاب طِفلٌ ، لاعبٌ ، عذبٌ ، جميل
وزمانُ الناس شَيْخٌ ، عابسُ الوجه ، ثقيل
يتمشّى فى ملال ، فوق هاتيك السهول

* * *

لكِ فى الغابات مرعاكِ ، ومسعاكِ الجميلْ
ولىَ الإنشادُ ، والعزف إلى وقت الأصيل
فإذا طالتْ ظِلالُ الكلإ ، الغضِّ ، الضئيل
فهلمّى نرجع المسعى إلى الحىِّ النبيل

أيتها الحالمة بين العواصف

أنتِ كالزهرةِ الجميلةِ فى الغاب ، ولكن ما بين شوكٍ ، ودود :
والرياحينُ تحسب الحسكَ الشريـر والدودَ من صنوف الورود .
فافهمى الناس .. ، إنما الناسُ خَلْقٌ مفسدٌ فى الوجود ، غيرُ رشيدُ
والسعيدُ السعيدُ من عاش كالليل غريبًا فى أهل هذا الوجود .
ودعيهم يحيَوْنَ فى ظلمة الإثم وعيشى فى طهرك المحمود .
كالملاك البرىءِ ، كالوردة البيضاء ، كالموج ، فى الخضمّ البعيد
كأغانى الطيور ، كالشفق الساحر كالكوكب البعيد السعيد .
كثلوج الجبال ، يغمرُها النور وتسمو على غبار الصعيد
أنتِ تحت السماء روحٌ جميلٌ صاغه اللهُ من عبير الورود .
وبنو الأرض كالقرود ، وما أضْـ ـيَعَ عِطرَ الورود بين القرود !
أنت من ريشة الإله ، فلا تُلْـ ـقِى بفنّ السما لجهل العبيد .
أنت لم تخلق ليقربُكِ الناسُ ولكن لتُعْبَدى من بعيد . . .

الأبد الصغير

يا قلبُ ! كم فيكَ من دُنيا محجّبةٍ كأنَّها ، حين يبدو فجرُها « إِرَمُ » [1]
يا قلبُ ! كمْ فيكَ من كونٍ ، قد اتقدتْ فيه الشُّموسُ وعاشتْ فوقهُ الأممُ
يا قلبُ ! كمْ فيكَ من أُفْقٍ تُنَمِّقُهُ كواكبٌ تتجلّى ، ثُمَّ تنعدِمُ
يا قلبُ ! كمْ فيكَ من قبرٍ ، قد انطفأتْ فيه الحياةُ ، وضجّتْ تحتهُ الرِّممُ
يا قلبُ ! كمْ فيكَ من غابٍ ومن جَبَلٍ تَدوِي به الريحُ أو تسمو به القِممُ
يا قلبُ ! كمْ فيكَ من كهفٍ قد انبجست منه الجــداولُ تجرى ما لها لُجُمُ
تمشي ..، فتحملُ غُصناً مُزْهِرًا نَضِرًا أوْ وَرْدَةً لمْ تَشَوِّهْ حُسنَها قَدَمُ
أو نَحلةً جرَّها التيَّارُ مُندَفِعًا إلى البحارِ ، تُغنِى فوقها الدِّيَمُ
أو طائراً ساحراً مَيْتًا قد انفجرتْ في مُقلتَيْهِ جراحٌ جمَّةٌ ودمُ
يا قلبُ ! إنكَ كونٌ مُدهِشٌ عَجَبٌ إنْ يُسْأَلِ الناسُ عن آفاقه يَجِمُوا
كأنكَ الأبدُ المجهولُ .. ، قد عجزَتْ عنكَ النُّهَى ، واكفهرّتْ حولكَ الظُّلَمُ

***

يا قلبُ ! كمْ من مسرّاتٍ وأخيِلةٍ ولذّةٍ ، يتحامَى ظِلَّها الألمُ
غنّتْ لفَجرِكَ صوتاً حالمًا ، فرِحًا نَشْوَانَ ثم توارتْ ، وانقضى النَّغمُ

---

(١) إرم: مدينة أسطورية أحاطتها الخرافات بجو خيالى مسحور ، فزعمت أنها بنيت على صفة الجنة : أرضها من مسك وقصورها من خالص الذهب واللؤلؤ والمرجان؛ وسماؤها من سحر مرصع بالأحلام .. ، وأنها لازالت إلى يومنا هذا فى صحراء العرب ، ولكنها محجوبة لايراها أحد ..

وكم رأى ليلك الأشباحَ هائمةً مذعورة تتهاوى حولها الرُّجُمُ

ورفرفَ الألمُ الدامى ، بأجنحةٍ من اللهيب ، وأنَّ الحزنُ والنَّدَمُ

وكمْ مشت فوقك الدُّنيا بأجمعها حتّى توارتْ ، وسار الموتُ والعدمُ

وشيَّدَتْ حولك الأيامُ أبنيةً من الأناشيد تَبْنَى ، ثم تنهدِمُ

* * *

تمضى الحياةُ بماضيها ، وحاضرِها وتذهَبُ الشمسُ والشُّطآنُ والقممُ

وأنتَ ، أنتَ الخِضمُّ الرَّحْبُ ، لا فَرَحٌ يَبْقَى على سطحكَ الطّاغى ، ولا ألمُ

* * *

يا قلبُ كم قد تملّيتَ الحياةَ ، وكمْ رقصتَها مَرِحًا ما مَسَّكَ السَّأَمُ

وكمْ توشَّحتَ من ليلٍ ومن شَفَقٍ ومن صباحٍ تُوشِّى ذَيْلَهُ السُّدُمُ

وكم نسجتَ من الأحلام أرديةً قد مزَّقتها الليالى ، وهْيَ تبتسِمُ

وكم ضفرتَ أكاليلاً مُورَّدَةً طارتْ بها زَعْزَعٌ تدوى وتحتَدِمُ

وكمْ رسمتَ رسومًا ، لا تُشابهها هذى العوالمُ ، والأحلامُ ، والنظُمُ

كأنّها ظُلَلُ الفِرْدَوْسِ ، حافلةً بالحورِ ، ثم تلاشتْ ، واختفى الحُلُمُ

* * *

تبلو الحيـــاةَ فتُبْليها وتخلعها وتستجدُّ حيــاةً ، ما لها قِدمُ

وأنتَ أنتَ شبابٌ خالدٌ ، نضِرٌ مثل الطبيعة : لا شيبٌ ولا هرَمُ

صوت من السماء

في الليل ناديتُ الكواكب ساخطاً متأجّجَ الآلام والآراب :
« الحقلُ يملكه جبابرة الدجى والروض يسكنه بنو الأرباب »
« والنهر ، للغول المقدّسة التي لا ترتوي . والغاب للحطّاب »
« وعرائس الغاب الجميلِ ، هزيلةٌ ظمأى لكل جَنًى ، وكل شراب »
« ما هذه الدنيا الكريهةُ ؟ ويلَها ! حَقّتْ عليها لعنة الأحقاب ! »
« الكونُ مُصْغٍ ، يا كواكبُ ، خاشعٌ طال انتظاري ، فانطقي بجواب ! »

* * *

فسمعتُ صوتاً ساحراً ، متموّجاً فوق المروج الفيحِ ، والأعشاب
وحفيفَ أجنحةٍ ترفرف في الفضا وصدًى يَرنُّ على سكون الغاب : »
« الفجرُ يولدُ باسماً ، مُتهلّلاً في الكونِ ، بين دُجُنّةٍ وضباب »

الصباح الجديد

أسكنى يا جراحْ واسكنى ياشجونْ
ماتَ عهد النُّواحْ وزمانُ الجنونْ
وأطلَّ الصَّباحْ مِنْ وراء القرونْ

* * *

فى فِجاج الرَّدى قد دفنت الألَمْ
ونثرتُ الدُّموعْ لرياحِ العَدَمْ
واتّخذتُ الحياة مِعزفًا للنغمْ
أتغنّى عليه فى رحابِ الزمانْ

* * *

وأذبتُ الأسَى فى جمال الوجودْ
ودحوتُ الفؤادْ واحةً للنشيدْ
والضيا والظلالْ والشّذَى والورودْ
والهوى والشبابْ والمُنى والحنانْ

* * *

اسكنى يا جراح واسكتى يا شجون
مات عهدُ النوح وزمانُ الجنون
وأطلَّ الصباح من وراءِ القُرون

* * *

فى فؤادى الرحيبْ معبدٌ للجمالْ
شيّدته الحياة بالرُّؤى ، والخيالِ
فتلوتُ الصلاة فى خشوع الظلال ...
وحرقت البخور . . . وأضأتُ الشموعَ ...

* * *

إن سِحْرَ الحياه خالدٌ لا يزولْ
فعلام الشكاهْ من ظلامٍ يحول
ثمَّ يأتى الصباح وتَمُر الفصول . . ؟
سوف يأتى ربيعْ إن تقضَّى ربيع

* * *

اسكنى يا جراح واسكتى يا شجونْ
مات عهدُ النواح وزمانُ الجنون
وأطلَّ الصباح من وراءِ القرونْ

* * *

من وراء الظلامْ وهديرِ المياهْ
قد دعانى الصباح وربيعُ الحياه
يا له من دُعَاء هزَّ قلبى صداه !
لَمْ يَعُدْ لى بقَاء فوق هذى البقاع

***

الوَداعَ ! الوَداعَ ! يا جبالَ الهمومْ
يا ضبابَ الأسى ! يا فِجاجَ الجحيم . !
قد جرى زوْرقى فى الخضمّ العظيم . . .
ونشرتُ القلاعْ . . . فالوَداع ! الوَداع !

ذكرى صباح

قدس الله ذكره من صباحٍ ساحرٍ ، فى ظِلال غاب جميل
كان فيه النسيم ، يرقص سكرانًا على الورد ، والنبات البليل
وضَباب الجبال ، ينساب فى رفقٍ بديعٍ ، على مروج السهول
وأغانى الرعاة ، تخفقُ فى الأغوارِ والسهلِ ، والربا ، والتلول
ورحابُ الفضاء ، تعبق بالألحانِ والعطرِ ، والضياء الجميل
والمَلاكُ الجميلُ ، مابين ريحانٍ وعُشبٍ ، وسِنديانٍ ، ظَليل
يتغنَّى مع العصافير ، فى الغاب ويرنو إلى الضباب الكسول
وشعور الملاك ترقص بالأزهار والضوء ، والنسيم ، والعليل

* * *

حُلمٌ ساحرٌ ، به حلمَ الغـابُ فواهًا لحلمه المعسول !
مثل رؤيا تلوح للشاعر الفنَّان فى نشوة الخيال الجليل
قد تملّيتُ سِحرَهُ فى أناةٍ وحنانٍ ، ولذةٍ ، وذهول
ثم ناديتُ ، حينما طفح السِّحر بأرجاء قلبيَ المبتول
يا شعورٌ تميد فى الغاب بالريحان ، والنور ، والنسيمِ البليل
كبِّليني بهاته الخصَلِ المُرْخَاةِ فى فتنةِ الدَّلال الملُول
كبلى يا سلاسلَ الحبِّ أفكارى ، وأحلامَ قلبيَ الضِّليل

كبِّليني بكل ما فيكِ من عِطرٍ   وسِحرٍ مقدّسٍ ، مجهولِ
كبِّليني ، فإنما يُصبح الفنَّان   حرًّا ، في مثل هذى الكبولِ

* * *

ليت شعرى ! كم بين أمواجكِ السود   دِ ، وطيَّات ليلِكِ المسدولِ
من غرامٍ ، مُذَهَّب التاج ، ميْتٍ   وفؤادٍ ، مُصَفَّدٍ ، مغلولِ
وزهورٍ من الأمانىّ تذوِى   فى شحوبٍ ، وخيبةٍ ، وخمولِ
أنتِ لا تعلمين . . ، والليلُ لا يعلم   كم فى ظلامِه من قتيلِ
أنتِ أرجُوحَةُ النسيمِ فميلى   بالنسيمِ السعيدِ كلَّ مَميلِ
وابئى للورودِ والظلّ ، والأضواء   فى عُرْيكِ ، الجميلِ ، النبيلِ
ودَعِى الشمسَ والسماء تُسَوِّى   لكِ تاجًا ، من الضياء الجميلِ
ودعى مُزْهِرَ الغصونِ يُفَتِّـ   ـلكِ بأوراق وَرْدِه المطلولِ

* * *

للشعاع الجميلِ أنتِ ، وللأنسا   مِ ، والزهرِ ، فالعَبى ، وأطيلى
ودعى للشقىّ أشواقَه الظمْأى   وأوهامَ ذِهْنِه المعلولِ
ياعروسَ الجبالِ ، ياوردةَ الآ   مالِ ، يافتنةَ الوجودِ الجليلِ
ليتنى كنتُ زهرةً ، تتثنَّى   بين طيات شَعْرِكِ المصقولِ !
أو فَراشًا ، أحومُ حولكِ مسحورًا   غريقًا ، فى نشوتى ، وذهولى !
أو غصونًا ، أحنو عليكِ بأوراق   حُنُوَّ المُدَلَّهِ ، المتبولِ !
أو نسيمًا ، أضمُّ صدركِ فى رِفْقٍ ،   إلى صدرِىَ ، الخفوقِ ، النحيلِ
آهِ آهٍ كم يُسْعِدُ الجمالُ ، ويُشْقِى   من قلوبٍ شِعْرِيَّةٍ ، وعقول . . .

الرواية الغريبة

ضحكنا على الماضى البعيد ، وفى غدٍ
ستجعلنا الأيامُ أضحوكةَ الآتى

وتلك هى الدنيا ، روايةُ ساحرٍ
عظيمٍ ، غريب الفنِّ ، مبدع آيات

يمثلها الأحياء فى مسرح الأسى
ووسط ضبابِ الهمِّ ، تمثيلَ أموات

ليشهدَ مِنْ خلف الضباب فصولَها
ويضحكَ منها — مَن يمثِّل ماياتى

وكلٌّ يؤدِّى دَوْرَهُ . . . ، وهو ضاحكٌ
على الغير ، مضحوكٌ على دوره العاتى

ألحان السَّكرى

قد سكرنا بحبنا واكتفينا ・ يا مديرَ الكؤوس فاصرفْ كؤوسَكْ
واسكبْ الخمرَ للعصافيرِ والنحلِ وخلِّ الثرى يَضُم عروسَكْ

* * *

مالنا والكؤوس ، نطلب منها نشوةً والغرامُ سحرٌ وسُكرُ ا
خَلِّنا منك ، فالربيع لنا ساقٍ وهذا الفضاء كأسٌ وخمر ا

* * *

نحن نحيا كالطير ، فى الأفُق الساجي وكالنحل ، فوق غضِّ الزهور
لا ترى غيرَ فتنةِ العالم الحيِّ وأحلامِ قلبها المسحور . . .

* * *

نحن نلهو تحتَ الظلالِ ، كطفلين سعيدين ، فى غُرور الطفوله
وعلى الصخرةِ الجميلةِ فى الوادى وبين المخاوفِ المجهوله

* * *

نحن نغدو ، بين المروج ونُمسى ونغنِّى مع النسيم المغنِّى
ونناجى روحَ الطبيعةِ فى الكون ونُصغى لقلبها المتغنى

* * *

نحن مثل الربيع : نمشى على أرضٍ من الزهر ، والرؤى ، والخيال
فوقها يرقص الغرام ، ويلهو ويغنِّى فى نشوةٍ ودلالِ

***

نحن نحيا فى جنة من جنان السحر فى عالم بعيد . . . ، بعيد . . . ،
نحن فى عشّنا المورّد ، نتلو سُوَرَ الحبّ للشباب السعيد

* * *

قد تركنا الوجودَ للناس ، فليقـ ـضوا الحياة كيف أرادوا
وذهبنا بلبّه ، وهو روحٌ وتركنا القشور ، وهى جمادُ

* * *

قد سكرنا بحبنا ، واكتفينا طَفَحَ الكأس ، فاذهبوا يا سُقاة
نحن نحيا فلا نريد مزيداً حسبنا ما منحتِنا يا حياةُ

* * *

حسبنا زهرُنا الذى نتنشّى حسْبنا كأسُنا التى نترشّفْ
إنّ فى ثغرنا رحيقاً سماويًّا وفى قلبنا ربيعًا مفوّفْ

* * *

أيها الدهر ، أيها الزمن الجارى إلى غير وُجهة وقرار !
أيها الكون ! أيها الفلك الدّوّار بالفجر ، والدجى ، والنهار !

* * *

أيها الموت ! أيها القدر الأعمى ! قِفُوا حيث أنتم ! أو فسيرُوا
ودعونا هنا : تُغنّى لنا الأحلامُ والحبُّ ، والوجودُ ، الكبير

* * *

وإذا ما أبيتُم ، فاحملونا ولهيبُ الغرام فى شفتينا
وزهورُ الحياة ، تعبقُ بالعطر ، وبالسحر ، والصّبا فى يدينا

إرادة الحياة

إذا الشعبُ يوما أراد الحياة فلا بدَّ أن يستجيب القدرْ
ولا بد لليل أنْ ينجلى ولا بدّ للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوقُ الحياة تبخَّرَ فى جوِّها ، واندثر
فويل لمن لم تَشُقْهُ الحياةُ من صفعة العدَم المنتصر
كذلك قالت لىَ الكائناتُ وحدَّثنى روحُها المستتر

* * *

ودمدمت الرِّيحُ بين الفِجاج وفوق الجبال وتحت الشجر :
« إذا ما طمحتُ إلى غايةٍ ركبتُ المُنى ، ونسِيتُ الحذر »
« ولم أتجنَّب وعورَ الشِّعاب ولا كُبَّةَ اللهَب المستعر »
« ومن لا يحبُّ صعودَ الجبال يعشْ أبَدَ الدهر بين الحُفَر »
فعجَّتْ بقلبى دماء الشباب وضجَّت بصدرِى رياحٌ أخَر ...
وأطرقتُ ، أصغى لقصف الرعود وعزف الرياح ، ووقع المطر

* * *

وقالت لىَ الأرض ـ لما سألت : « أيا أمُّ هل تكرهين البشر ؟ » :
« أبارك فى الناس أهلَ الطموح ومن يستلذُّ ركوبَ الخطر »
« وألعنُ من لا يماشى الزمانَ ، ويقنع بالعيش عيشَ الحجَر »

«هو الكون حيٌّ ، يحبُّ الحياة ويحتقر الميْتَ ، مهما كبُر»
«فلا الأفق يحضُن ميْتَ الطيورِ ، ولا النحلُ يلثِم ميْتَ الزهر»
«ولولا أمومةُ قلبي الرؤومُ لَمَا ضمّتْ الميْتَ تلك الحُفَر»
«فويلٌ لمن لم تشُقه الحياة ، مِنْ لعنة العـــدمِ المنتصر!»

* * *

وفي ليــلة من ليالي الخريف مثقّلةٍ بالأسى والضجر
سكرت بها من ضياء النجوم وغنّيْتُ للحُزْن حتى سكر
سألتُ الدجى : هل تُعيد الحياةُ لما أذبلته ربيعَ العمر ؟
فلم تتكلّم شفاه الظــلام ولم تترنّمْ عذارى السحَر
وقال ليَ الغــابُ في رقةٍ مُحَبّبَةٍ مثل خفْق الوتر :
«يجيء الشتاء ، شتاء الضباب ، شتاء الثلوج ، شتاء المطر»
«فينطفئ السحرُ ، سحر الغصون ، وسحرُ الزهور ، وسحر الثمر»
«وسحر السماء ، الشجيُّ ، الوديعُ ، وسحرُ المروج ، الشهيُّ ، العطِر»
«وتهوى الغصــونُ ، وأوراقُها وأزهارُ عهدٍ حبيبٍ نضِر»
«وتلهو بهـا الريح في كل وادٍ ويدفنها السيلُ ، أنَّى عبر»
«ويفنى الجميــعُ كحُلمٍ بديع ، تألّق في مهجةٍ واندثر»
«وتبقى البــذورُ ، التي حُمِّلَتْ ذخيرةَ عُمْرٍ جميلٍ ، غَبَر»
«وذكرى فصولٍ ، ورؤيا حياةٍ ، وأشباحَ دنيا ، تلاشتْ زُمَر»
«معانقةً — وهي تحت الضباب ، وتحت الثلوج ، وتحت المَدَر —»

« لِطَيْفِ الحياة الذى لا يُمَلُّ ، وقلبِ الربيع الشذىّ الخضِر »
« وحالمةً بأغانى الطيـــــــور ، وعِطْرِ الزهور ، وطعمِ الثمر »
* * *
« ويمشى الزمان ، فتنمو صروف ، وتذوى صروف ، وتحيا أخَرَ »
« وتُصبِحُ أحلامها يقْظـةً ، مُوَشَّـحةً بغموض السَّحَرِ »
« تُسائل : أين ضباب الصباح ، وسِحْرُ المساء ؟ وضوء القمر ؟ »
« وأسرابُ ذاكَ الفَراشِ الأنيقِ ؟ ونحلٌ يغنّى ، وغيمٌ يمر ؟ »
« وأين الأشِـعَّةُ والـكائناتُ ؟ وأين الحيـاة التى أنتظر ؟ »
« ظمِئتُ إلى النور ، فوق الغصون ! ظمِئت إلى الظل تحت الشجر ! »
« ظمِئتُ إلى النبع ، بين المروج ، يغنّى ، ويرقص فوق الزَّهَر ! »
« ظمئتُ إلى نَغَمات الطيور ، وهَمْسِ النَّسيمِ ، ولحن المطر ، »
« ظمئتُ إلى الـكون ! أين الوجودُ وأنّى أرى العالَمَ المنتظر ؟ »
« هو الـكونُ ، خلف سبات الجمود ، وفى أُفُقِ اليقظات الـكُبَرَ »
* * *
« وما هو إلا كخفق الجنـاح حتى نمـا شوقُها وانتصر »
« فصَدَّعتِ الأرضَ من فوقها وأبصرت الـكونَ عذبَ الصُّوَر »
« وجاء الربيعُ ، بأنغامه . وأحــــلامه ، وصِبَاه العطِرِ »
« وقبّلها قُبَلاً فى الشفاه ، تعيد الشباب الذى قد غَبَرَ »
« وقال لها : قد مُنحتِ الحياةَ ، وخُلِّدْتِ فى نسلكِ المُدَّخَر »

« وبارَكَكِ النُّورُ ، فاستقبلي شبابَ الحياة وخِصْبَ العُمُر »

« ومن تعبد النورَ أحلامُه ، يُبَارِكُهُ النُّورُ أنّى ظهر »

« إليكِ الفضاء ، إليكِ الضياء ، إليكِ الثرى ، الحالمَ ، المزدهر ! »

« إليكِ الجمالَ الذى لا يَبيدُ ! إليكِ الوجودَ ، الرحيبَ ، النضير ! »

« فميدى — كما شئتِ — فوق الحقول ، بحلو الثمار وغضِّ الزَّهَر »

« وناجى النسيمَ ، وناجى الغيومَ ، وناجى النجومَ ، وناجى القمر »

« وناجى الحياةَ وأشواقَها ، وفتنةَ ، هـــذا الوجود الأغر »

* * *

« وشفَّ الدجى عن جمالٍ عميقٍ ، يشُبُّ الخيالَ ، ويُذكى الفِكَر »

« ومُدَّ على السكون سِحرٌ غريبٌ ، يُصَرِّفه ساحرٌ مقتدر »

« وضاءت شموعُ النجوم الوِضاء ، وضاع البَخُورُ ، بخور الزَّهَر »

« ورفرف روحٌ ، غريبُ الجمال بأجنحةٍ من ضياء القمر »

« ورنَّ نشيدُ الحياة المقدَّسُ فى هيكلٍ ، حالمٍ ، قد سُحِر »

« وأعلِنَ فى السكون : أنَّ الطموحَ لهيبُ الحياةِ ، ورُوحُ الظَّفَر »

« إذا طمحتْ للحياة النفوس فلا بدَّ أنْ يستجيبَ القدر ! »

* * *

تحت الغصون

ها هنا ، فى خمائل الغاب ، تحت الزان ، والسنديان ، والزيتون ،

أنت أشهى من الحياة وأبهى من جمال الطبيعة الميمون

ما أرق الشباب ، فى جسمك الغض وفى جيدك ، البديع ، الثمين !

وأدق الجمال فى طرفك الساهى ، وفى ثغرى الجميل ، الحزين !

وألذ الحياة حين تغنين فأصغى لصوتك المحزون

وأرى روحك الجميلة عطراً ضايعاً فى حلاوة التلاحين !

قد تغنيت منذ حين بصوت ناعم ، حالم ، شجى حنون

نغماً كالحياة عذباً عميقاً فى حنان ، ورقة ، وحنين

فإذا السكون قطعة من نشيد علوى ، منغم ، موزون

فلمن كنت تنشدين ؟ فقالت : « الضياء البنفسجى الحزين »

« للضباب المورد ، المتلاشى كخيالات حالم ، مفتون

« للمساء المطل ، للشفق الساجى ، لسحر الأسى ، وسحر السكون »

« للعبير الذى يرفرف فى الأفق ويفنى ، مثل المنى ، فى سكون »

« للأغانى التى يرددها الراعى بمزماره الصغير ، الأمين »

« للربيع الذى يؤجج فى الدنيا حياة الهوى ، وروح الحنين »

« ويوشى الوجود بالسحر ، والأحلام والزهر ، والشذى ، واللحون »

« للحياة التي تغنّي حواليّ ! على السهل ، والربا والحزون »
« للينابيع ، للعصافير ، للظل لهذا الثرى ، لتلك الغصون »
« للنسيم الذي يضمّخ أحلامي بعطر الأقاح والليمون »
« للجمال الذي يفيض على الدنيا لأشواق قلبيَ المشحون »
« للزمان الذي يوشّح أيّامي بضوء المُنى وظل الشجون »
« للشباب السكران ، للأمل المعبود ، لليأس ، للأسى ، للمنون »

* * *

فتنهدتُ ، ثم قلتُ : « وقلبي مَنْ يغنيه ؟ مَنْ يُبيد شجوني ؟ »
قالت « الحبُّ » ثم غنّتْ لقلبي قُبَلاً عبقرية التلحين
قبلاً ، علّمت فؤادي الأغاني ، وأنارتْ له ظلام السنين
قبلاً ، ترقُص السعادةُ ، والحبُّ على لحنها العميقِ الرصين

* * *

... وأفقنا ، فقلت كالحالم المسحور : « قولي ، تكلمي ، خبريني »
« أيُّ دنيا مسحورة ، أي رؤيا طالعتني في ضوء هذي العيونِ : »
« زمرٌ من ملائك الملأ الأعلى « يغنون في حُنوٍّ حنون »
« وصبايا رواقص ، يتراشقن بزهر التفاح والياسمين »
« في فضاء ، مُوَرّدٍ حالمٍ ساهٍ أطافت به عذارى الفنون »
« وجحيمٍ تَوَهّجُ تحت فراديس كأحلام شاعرٍ مجنون »
« أيُّ خمرٍ مؤجّجٍ ولهيبٍ مُسكرٍ ؟ أي نشوة ، وجنون ؟ »

« أى خمرٍ رشفتُ ، بل أى نارٍ في شفاهٍ ، بديعة التكوين »؟

« وردتْها الحياةُ في لهبِ السحر ، ونُور الهوى ، وظلٌّ الشجون ».

« أى إثمٍ مقدّسٍ ، قد لمسنا بُرْدَهُ في مسائنا الميمون ؟ »

فبدا طيفُ بسمةٍ ، ساحرٌ ، عذبٌ ، على ثغرها ، قوىُّ الفتون.

وأجابتْ — وكلها فتنةٌ تغوى ، وتُغرى بالحب ، بل بالجنون — :

« أبداً ! أنتَ حالمٌ ، فاسأل الليلَ ، فعند الظلام علمُ اليقين ... ».

* * *

وسكتنا ، وغرّدَ الحبُّ في الغاب ، فأصغى حتى حفيفُ الغصون.

وبنى الليلُ والربيعُ حوالينا من السحر والرؤى والسكون

معبداً للجمال ، والحبُّ شعريًّا ، مَشيداً على فجاج السنين.

تحته يزخرُ الزمانُ ، ويجرى صامتاً ، في مسيله المحزون

وتمرُّ الأيامُ ، والحزنُ ، والموتُ ، بعيداً عن ظله المأمون.

معبداً ، ساحراً ، مباخرُهُ الزهرُ ، على الصخرِ ، والثرى ، والغصون.

كلُّ زهرٍ يضوع منه أريجٌ من بخور الربيع ، جمُّ الفتون.

ونجومُ السماء فيه شموعٌ أوقدتْها للحبِّ رُوحُ القرون.

ومضتْ نسمةٌ توسوسُ للغاب ، وتشدُو في عُمقِ ذاك السكون.

وطغى السحر ، والغرام بقلبى فتوسلْتُ صارعًا بجفونى :

« طهّرى يا شقيقة الروحِ ثغرى بلهيب الحياة ، بل قبّليني ».

« إن نارَ الحياةِ والكوثرَ المنشودَ ، في ثغركِ الشهىِّ ، الحزين ».

« فهو كأسٌ سحرية ، لرحيق الخلد قد صاغها إله الفتـــــون »
« قبّليني ، وأسكري ثغريَ الصادي وقلبي ، وفتنتي ؟ ، وجنوني »
علّيَ أستطيع أن أتغنى لجمالُ الدجى برحى العيــون »
« آه ! ما أجمل الظلام ! وأقوى وحيه في فؤادي المفتــون ! »
« أنظري الليل فهو حلّة الأحلام يمشي على الذرى والحزون »
« واسمعي الغاب ، فهو قيثارةُ السكون تغــنى لحبنــا الميمـــون »
إن سحر الضباب ، والليل ، والغاب بعيــد المدى ، قويُّ الفتون
« وجمال الظلام يعبق بالأحلام والحب . . . فابسمي ، والثميني . . . »

. . . .

« آهِ ! ما أعذب الغرام ! وأحلى رَنَّةَ اللثم في خشوع السكون ! »

* * *

. . . . وسكرنا هناك . . . في عالم الأحلام تحت السماء ، تحت الغصون . . .
وتوارى الوجود عنا بما فيه . . . وغبنا في عالم مفتـــــون . . .
ونسينا الحياة ، والموت ، والسكون وما فيــه من مُنًى ومَنون

إلى الشعب

أين يا شعبُ قلبُكَ الخافقُ الحسّاسُ ؟ أين الطموحُ ، والأحلامُ ؟

أين ياشعبُ ، روحُك الشاعرُ الفنّانُ ؟ أين ، الخيال ، والإلهامُ ؟

أين ياشعب ، فنُّك، الساحرُ الخلاّقُ ؟ أين الرسومُ والأنغام ؟

إنَّ يمّ الحياة يدوى حوالَيكَ فأين المغامِرُ ، المقدام

أين عزم الحياة ؟ لا شىء إلاّ الموتُ ، والصّمتُ، والأسى، والظلام

عُمُرٌ ميّتٌ ، وقلبٌ خَواءٌ ودمٌ ، لا تثيره الآلام

وحياةٌ ، تنامُ فى ظلمة الوادى وتنمو من فوقها الأوهام

أىُّ عيش هذا ، وأىُّ حياة ؟ ! (رُبَّ عَيْشٍ أخَفُّ منه الحَمام)

* * *

قد مشتْ حولكَ الفصول وغنَّتكَ فلم تبتهج ، ولم تترنَّمْ

ودَوَتْ فوقك العواصفُ والأنواء حتّى أوشَكْتَ أن تتحطّمْ

وأطافَتْ بكَ الوحوشُ وناشتك فلم تضطرب ، ولم تتألمْ

يا إلهى ! أما تحسُّ ؟ أما تشدو ؟ أما تشتكى ؟ أما تتكلّمْ ؟

مَلّ نهرُ الزّمانِ أيامَك الموتَى وأنقاضَ عُمْرِكَ المتهدِّمْ

أنتَ، لا ميّت فيبلَى ، ولا حيٌّ فيمشى ، بل كائنٌ ، ليس يُفهَمْ .

أبدًا يرمق الفـــراغَ بطرفٍ جامدٍ ، لا يرى العوالِمَ ، مُظْلِمْ
أىُّ سِحْرٌ دهاكَ ، هل أنتَ مسحورٌ شــقىٌّ ؟ أو ماردٌ ، يتهـكَّمْ ؟

* * *

آهٍ ! بل أنت فى الشعوب عجوزٌ ، فيلسوفٌ ، مُحَطَّمٌ فى إهــابه
ماتَ شوقُ الشباب فى قلبِه الذاوى ، وعزمُ الحيـــــاة فى أعصابه
فقضى ينشِد السلامَ . . ، بعيداً . . . فى « قبور الزمان » خلفَ هضابه
وهناكَ . اصطاق البقآءَ مع الأموات ، فى « قبر أمســه » غيرَ آبهْ . . .
وارتضى القبرَ مسكنًا ، تتلاشى فيه أيامُ عُمْــرِهِ المُتشابِهْ
وتنـاسى الحياةَ ، والزَّمَنَ الدَّاوِى وما كان مِنْ قــديمِ رِغابِهْ
فالْزَمِ القبرَ . . . فهو بيتٌ ، شبيهٌ بكَ فى صمت قلبه ، وخرابِه
واعْبدِ « الأمسَ » وادَّكِر صُوَرَ الماضى فدُنيا العجوز ذِكرى شبابِهْ . . .

* * *

وإذا مَرَّت الحيـاةُ حوالَيْكَ جميلاً ، كالزهر عضًّا صِباها
تتغنَّى الحيـاة بالشوق والعزم فيُحْيِى قلبَ الجماد غِنـاها
والربيعُ الجميلُ يرقص فوق الورد ، والعشب ، مُنْشِدًا ، تيَّاها
ومشى الناسُ خلفها ، يتملَّوْنَ جمالَ الوجـــود فى مَرْآها
فاحْذَرْ السِّحْرَا أيها الناسكُ القِدِّيسُ ، إنَّ الحيـاةَ يُغْوِى بَهاها
والربيعُ الفَنَّانُ شاعِرُها المفتونُ يُغرِى بحبهــــا وهواها
وتَمَلَّ الجمالَ فى رِمَمِ الموتى . . . ! بعيدًا عن سحرها وصداها

وتغزَّلْ بسحر أيامك الأولى ، وَخَلِّ الحيــــاةَ تخطو خطاها

* * *

وإذا هبَّت الطيورُ مع الفجر ، تُغنِّى بين المروج الجميــلهْ
وتُحيِّى الحياةَ ، والعالمَ الحىّ ، بصوتِ المحبَّةِ المعســولهْ
والفراشُ الجميلُ رَفْرَفَ فى الروض ، يناجى زهـــورَهُ المطلولهْ
وأفاقَ الوجودُ للعمل المُجْدِى وللسَّعىِ ، والمعــــانى الجليلهْ
ومشى الناس فى الشّعاب ، وفى الغاب ، وفوق المسالكِ المجهــولهْ
ينشدون الجمالَ ، والنورَ ، والأفراحَ والمجـدَ ، والحيـــاةَ النبيلهْ
فاغضض الطرفَ فى الظلام ! وحاذِرْ فتنةَ النورِ ! فهىَ رؤْيا مَهولهْ .
وصباحُ الحياةِ لا يُوقِظُ المَوْتَى ولا يرحمُ الجفونَ الـكليلهْ

* * *

كلُّ شىء يُعاطِف العالمَ الحىّ ، ويُذكِى حيـــاته ، ويُفيدُهْ
والذى لا يُجاوِب الـكونَ بالإحساس عِبْءٌ على الوجود ، وُجودُهْ
كلُّ شىء يُسايِرُ الزمنَ الماشى بعزمٍ ، حتى الترابُ ، ودودُهْ
كُلُّ شىء - إلاّكَ - حىٌّ ، عطوفٌ يُؤْنِسُ الـكونَ شَوْقُهُ ، ونَشيدُهْ
فلماذا تعيش فى الـكون ياصاحِ ! وما فيكَ من جنًى يستفيدُهْ
لستَ يا شيـخُ للحياةِ بأهْلٍ أنت داءٌ يُبيــدُها وتُبيدُهْ
أنت قفْرٌ جهنّمىٌّ لعَـينٌ ، مُظلمٌ ، قاحلٌ ، مُريعٌ جمودُهْ

لا تَرِفُّ الحياة فيه ، فلا طيرٌ يُغنّى ، ولا سحابٌ يَجُودُهْ

* * *

أنتَ يا كاهنَ الظلامِ حياةٌ تعبد الموتَ . . ! أنت روحٌ شقىٌّ
كافرٌ بالحياةِ والنورِ . . . ، لا يُصغى إلى السكون قلبُه الحَجَرِىُّ
أنتَ قلبٌ ، لا شوقَ فيه ولا عزمَ وهذا داءُ الحياةِ الدَّوِىُّ
أنتَ دنيا ، يُظلُّها أُفُقُ الماضى وليلُ الكآبةِ الأبدىُّ
مات فيها الزمانُ ، والكونُ إلاّ أمسُها الغابرُ ، القديمُ ، القَصِىُّ
والشقِىُّ الشقىُّ فى الأرض قلبٌ يَوْمُهُ مَيِّتٌ ، وماضيه حىُّ
أنتَ لا شىء فى الوجودِ ، فغادِرْهُ إلى الموت فَهْوَ عنك غَنِىُّ

النّاس

إِنما قدّسَ المُثُلَ الأعلى وجمَّلَه فى أعيُنِ الناس إلاّ أنه حلم !
ولو مشى فيهم حيًّا لحطّمه قومٌ ، وقالوا بخبثٍ : « إنه صنَمْ » !
لا يعبد الناسُ إلا كلَّ منعدمٍ مُمنَّعٍ ، ولِمَنْ حاباهُمُ العدم !
حتى العباقرةُ الأفذاذ ، حبّهم يلقَى الشقاء وتلقَى مجدَها الرِّمَمُ !

* * *

الناس لا ينصفون الحىَّ بينهمُ حتّى إذا ما توارى عنهمُ ندموا !
الويلُ للناس من أهوائهم ! أبداً يمشى الزمانُ وريح الشر تحتدم ...

نَشيدُ الجبَّار

أو هكذا غنى بروميثيوس

سأعيش رغمَ الداء والأعداء　　كالنّسرِ فوق القِمّـةِ الشماء
أرنو إلى الشمس المضيئة . . هازئاً　　بالسُّحْب ، والأمطار ، والأنواء . . .
لا أرمقُ الظلّ الكئيبَ . . ، ولا أرى　　ما في قرار الهُوَّةِ السوداء . . .
وأسيرُ في دنيا المشاعر ، حالماً ،　　غرِداً — وتلك سعادة الشعراء —
أصغي لموسيقى الحياة ، ووحْيها　　وأذيب روحَ الكون في إنشائي
وأصيخُ للصوت الإلهيِّ ، الذي　　يُحيي بقلبي ميّتَ الأصـداء

* * *

وأقول للقـدر الذي لا ينثني　　عن حرب آمالي بكل بلاء :
« لا يطفِىءُ اللهبَ المؤجّج في دمي　　موجُ الأسى ، وعواصف الأرزاء »
« فاهدم فؤادي ما استطعتَ ، فإنه　　سيكون مثل الصخرة الصماء »
« لا يعرف الشكوى الذليلةَ والبكا ،　　وضَراعَةَ الأطفال والضعفاء »
« ويعيش جبّاراً ، يحدّق دائماً　　بالفجر . . ، بالفجر الجميل ، النائي »
« واملأ طريقي بالمخاوفِ ، والدجى ،　　وزوابع الأشواك ، والحصباء »
« وانشر عليه الرُّعبَ ، وانثر فوقه　　رُجمَ الرّدى ، وصواعقَ البأساء »

« سأظل أمشى رغم ذلك ، عازفاً قيثـــارتى ، مترنماً بغنائى »
« أمشى بروح حالمٍ ، مُتَوَهِّجٍ فى ظلمـــة الآلام والأدواء »
« النور فى قلبى وبين جوانحى فعلام أخشى السير فى الظلماء ! »
« إنى أنا النايُ الذىُ لا تنتهى أنغـامه ، مادام فى الأحيـاء »
« وأنا الخضمُّ الرحْبُ ، ليس تزيده إلا حياةً سطوةُ الأنواء »
« أمّا إذا خمدت حياتى ، وانقضى عُمُرى ، وأخرست المنيّةُ نائى »
« وخبا لهيبُ الكون فى قلبى الذى قد عاش مثلَ الشعلة الحمراء »
« فأنا السعيد بأننى مُتَحَوِّلٌ عنْ عالم الآثام ، والبغضاء »
« لِأذوبَ فى فجر الجمال السرمدىِّ وأرتوى من مَنْهَلِ الأضواء »

* * *

أقولُ للجمع الذين تجشموا هدمِى وودُّوا لو يخرُّ بنـائى
ورأَوْا على الأشواك ظلِّى هامداً فتخيَّلوا أنِّى قضيْتُ ذَمائى
وغدَوْا يَشُبُّونَ اللهيبَ بكلِّ ما وجدوا . . ، ليشوُوا فوقه أشلائى
ومضَوْا يمدُّون الخوان ، ليأكلوا لحمى ، ويرتشفوا عليه دمائى
إنى أقول لهم - ووجهى مشرقٌ وعلى شفاهى بسمةَ استهزاء -
« إن المعاول لا تهد مناكبى والنـار لا تأتى على أعضائى »
« فارموا إلى النار الحشائش . . ، والعبوا يا معشر الأطفال تحت سمائى »
« وإذا تمرّدت العواصف ، وانتشى بالهول قلب القبـــة الزرقاء »
« ورأيتمونى طائراً ، مترنماً فوق الزوابع ، فى الفضاء النائى »

« فارمو على ظلى الحجارة ، واختفوا خوفَ الرياح الهُوجِ والأنواء . . . »
« وهناك ، فى أمْنِ البيوت ، تطارحوا غَثَّ الحديث ، وميِّتَ الآراء »
« وترنَّموا — ماشئتمُ — بشتائمى وتجاهروا — ماشئتمُ — بعِدائى »
« أما أنا فأجيبكم من فوقكم والشمسُ والشفقُ الجميل إزائى : »
« من جاش بالوحيِ المقدَّسِ قلبُه لم يحتفِلْ بحجـــارة الفلتاء »

زوبعة فى ظلام

لو كانت الأيام فى قبضتى أذريتها للريح ، مثل الرمال
وقلت : « ياريح ، بها فاذهبى وبدِّديها فى سحيق الجبال »
« بل فى فجاج الموت . . فى عالمٍ لا يرقص النور به والظِّلال ... »

* * *

لو كان هذا الكون فى قبضتى ألقيْتُه فى النار ، نار الجحيمْ
ماهذه الدنيا ، وهذا الورى وذلك الأفق ، وتلك النجوم ؟ !
النار أوْلى ببعيد الأسى ، ومسرح الموت ، وعُشّ الهموم

* * *

يأيها الماضى الذى قد قضى وضمَّهُ الموتُ ، وليلُ الأبدْ !
ياحاضر الناس الذى لم يزَلْ يأيهــا الآتى الذى لم يلد !
سخافةٌ دنياكم هــــذه تائهةٌ فى ظلمة لا تُحَد . . !

الاعتراف

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبى — ومشاعرى عمياء بالأحزان —
أنى سأظمأ للحياة ، وأحتسى من نهرها المتوهج النشوان
وأعودُ للدنيا بقلبٍ خافقٍ للحبِّ ، والأفراح ، والألحان
ولكل مافى الكون من صور المنى وغرائب الأهواء والأشجان
حتى تحركت السنون ، وأقبلت فتن الحياة بسحرها الفنّان
فإذا أنا مازلت طفلاً ، مولعًا بتعقُّب الأضواء والألوان
وإذا التشاؤم بالحياة ورفضها ضربٌ من البهتان والهذيان
إن ابن آدمَ فى قرارة نفسه عبدُ الحياة الصادقُ الإيمان

حرم الأمومة

الأمُّ تلثُم طفلَها ، وتضمُّه حرَمٌ ، سماويُّ الجمال ، مقدّسٌ
تتألَّه الأفكارُ . وهى جوارَه وتعود طاهرةً .هناك الأنفُس
حرَمُ الحياة بطهرها وحنانها هل فوقه حرَمٌ أجلُّ وأقدس ؟
بوركتَ ياحرَمَ الأمومةِ والصِّبا كم فيك تكتمل الحياةُ وتقدُس

قلب الشاعر

كل ما هبّ ، وما دبّ ، وما نام ، أو حام على هذا الوجودْ
من طيورٍ ، وزهورٍ ، وشذى وينابيعَ ، وأغصانٍ تميـــد
وبحارٍ ، وكهوفٍ ، وذُرى وبراكين ، ووديانٍ ، وبيـــد
وضياءٍ ، وظلالٍ ، ودجى ، وفصول ، وغيوم ، ورعود
وثلوج ، وضـــباب عابرٍ ، وأعاصيرَ ، وأمطارٍ تجود
وتعـاليمَ ، ودين ، ورؤى ، وأحاسيس ، وصمتٍ ، ونشيد
كلّها تحيا بقلبي ، حُــرّةً غضة السحر ، كأطفال الخلود

***

ها هنا ، في قلبيَ الرحب ، العميق يرقص الموتُ وأطيافُ الوجود
ها هنا ، تعصف أهوال الدجى ها هنا ، تخفق أحلام الورود
ها هنا ، تهتف أصـــداء الفنا ها هنا ، تُعزَفُ ألحانُ الخلود
ها هنا ، تمشي الأماني ، والهوى ، والأسى ، في موكبٍ فخمِ النشيد
ها هنا الفجر الذي لا ينتهي ها هنا الليل الذي ليس يبيـــد
ها هنا ، ألفُ خِضَمٍّ ، ثائرٍ خالدِ الثورةِ ، مجهولِ الحدود
ها هنا ، في كلِّ آنٍ تمّحي صُوَرُ الدنيا ، وتبدو من جديد

الدنيا الميتة

إنى أرى . . ، فأرى جموعاً جمّة لكنها تحيـــــا بلا ألباب
يدوى حوالَيْها الزمان ، كأنما يدوى حوالى جندل وتراب
وإذا استجابوا للزمان تناكروا وترشقوا بالشوك والأحصاب
وقضَوْا على روح الأخوّة بينهم جهلاً وعاشوا عيشة الأغراب
فرحَتْ بهم غولُ التعاسة والفنا ومطامع السّـــلاّب والغلاّب
لُعَبٌ ، يُحرِّكها المطامع ، واللُّهى وصغائرُ الأحقـــاد والآراب
وأرى نفوساً ، من دُخان ، جامدٍ مَيْتٍ ، كأشباح ، وراء ضباب
مَوْتَى ، نَسُوا شوقَ الحياة وعزمَها وتحرّكوا كتحرُّك الأنصاب
وخبَا بهمْ لَهَبُ الوجود ، فما بَقُوا إلاّ كمحترقٍ من الأحشاب
لا قلبَ يقتحمُ الحياةَ ، ولا حِجَى يســـمو سُمُوَّ الطائر الجوّاب
بل فى التراب المَيْتِ ، حَزْنِ الثرى تنمو مشاعرُهم مع الأعشاب
وتموت خاملةً ، كزهرٍ بائس ينمو ويذْبُل فى ظلام الغاب
أبداً تُحدِّقُ فى التراب . . ، ولا تَرَى نورَ السماء . . ، فروحُها كتراب . . !
الشـــاعر الموهوبُ يُهرِق فنّه هدراً على الأقـــدام والأعتاب
ويعيش فى كونٍ ، عقيمٍ ، ميّتٍ قد شـــيّدته عناوةُ الأحقاب
والعـــالِمُ النِّحريرُ يُنْفِقُ عُمْرَه فى فهم ألفاظٍ ، ودرسِ كتاب

يَحيا على رِمَمِ القديمِ المُبتَوَى   كالدُّود فى جَمِ الرَّماد الخابى
والشَّعبُ بينهما قطيعٌ ضائعٌ   دنياه دنيا مأكلٍ وشراب

* * *

الوَيْـلُ للحسَّاس فى دنياهم   ماذا يُلاقى من أسًى وعذاب !

إلى طغاة العالم

ألا أيهـا الظـالم المستبد   حبيب الظلام ، عدوّ الحياهْ
سخرتَ بأنَّات شعب ضعيف   وكفك مخضـوبة من دماه
وسرتَ تُشوِّه سِحْرَ الوجود   وتبذر شوك الأسى فى رُباهْ

* * *

رُوَيدَكَ ! لا يخدعنْك الربيعُ   وصحوُ الفضاء ، وضوء الصباح
ففى الأفُق الرحب هولُ الظلام   وقصفُ الرعود ، وعصف الرياح
حذار ! فتحت الرماد اللهيبُ   ومن يبذر الشوك يجنِ الجراح

* * *

تأمل ! هنالك . . أنّى حصدتَ   رءوسَ الورى ، وزهورَ الأملْ
ورويّت بالدم قلبَ التراب   وأشربتَه الدمعَ ، حتى ثمل
سيجرفكَ السيلُ ، سيلُ الدماء   ويأكلُك العاصفُ المشتعِل

شكوى ضائعة

يا ليل ! ما تصنع النفسُ التى سكنت ... هذا الوجودَ ، ومِنْ أعدائها القدر ؟

ترضى وتسكت ؟ هذا غير محتمل ! ... إذاً ، فهل ترفض الدنيا ، وتنتحر ؟

وذا جنونٌ لَعَمْرى ، كلُّه جَزَعٌ ... باكٍ ، ورأىٌ مريضٌ ، كلُّه خَوَر !

فإنما الموت ضربٌ من حبائله ... لا يُفلت الخلقُ ما عاشوا ، فما المفر ؟

هذا هو اللغزُ ، عمّاهُ وعَقّدَهُ ... على الخليقة ، وحشٌ ، فاتكٌ حذِر

قد كَبّلَ القدرُ الضارى فرائسَه ... فما استطاعوا له دفعاً ، ولا حَذَروا

وخاطَ أعينَهم ، كى لا تشاهده ... عينٌ ، فتعلم ما يأتى وما يذر

وحاطهم بفنونٍ من حبائله ... فما لهم أبدا من بطشــه وزَر

لا الموت يُنقذهم من هول صولته ... ولا الحياةُ . تَساوى الناسُ والحجر !

حارَ المساكينُ ، وارتاعوا ، وأعجزَهم ... أن يحذروه ، وهل يُجديهم الحذر

وهم يعيشون فى دنيا مشيَّدةٍ ... من الخطوب ، وكونٍ كله خطر ؟

وكيفَ يحذر أعمَى ، مُدْلِجٌ ، تَعِبٌ ، ... هولَ الظلام ، ولا عزمٌ ولا بَصَرُ ؟

قد أيقنوا أنه لا شيء يُنقذهم ... فاستسلموا لسكون الرعب ، وانتظروا...

ولو رأوه لسارت كى تحاربه من الورى زُمَرٌ ، فى إثرها زمر

وثارت الجنّ ، والأملاك ناقمةً والبحرُ ، والبَرُّ ، والأفلاكُ ، والعُصُر

لكنه قوّةٌ تُملى إرادتها سرًّا ، فتمْتَنُوا لها قهرًا ، وتأتمر

حقيقة ، مُرّةٌ ، ياليل ، مُبْغَضَةٌ كالموت ، لكنْ إليها الوِرْدُ الصَّدَرُ

***

تَفَهَّدَ الليلُ ، حتى قلت : « قد نُثِرَتْ تلك النجومُ ، ومات الجنُّ والبشر »

وعاد للصّمت . . ، يُصغى فى كآبته – كالفيلسوف – إلى الدنيا ، ويفتكر . .

وقَهْقَهَ القدرُ الجبّارُ ، سُخرِيةً بالكائنات . تَضَاحَكْتُ أيُّها القدر !

تمشى إلى العدمَ المحتوم ، باكيةً طوائفُ الخلق والأشكالُ والصور

وأنتَ فوقَ الأسى والموتِ ، مبتسمٌ ترنو إلى الكون ، يُبْنَى ، ثمّ يندثر .

الغابُ

بيتٌ ، بَنَتْهُ لِىَ الحياةُ من الشذَى ، والظل ، والأضواء ، والأنغام

بيتٌ ، من السحر الجميل ، مُشَيّدٌ للحبِّ ، والأحلام ، والإلهام

فى الغاب سِحرٌ ، رائعٌ مُتجدِّدٌ باقٍ على الأيام والأعوام

وشذًى كأجنحة الملائك ، غامضٌ ساهٍ يُرفرف فى سكونٍ سام

وجداولٌ ، تشدو بمعسول الغِنا وتسيرُ حالمةً ، بغير نظام

ومخارفٌ نَسَجَ الزمانُ بساطَها من يابسِ الأوراق والأكمام

وحَنَا عليها الدَّوْحُ ، فى جبروته بالظلِّ ، والأغصان والأنسام

فى الغاب ، فى تلك المخارف ، والرُّبا ، وعلى التِّلاع الخُضرِ ، والآجام

كم من مشاعرَ ، حلوةٍ ، مجهولةٍ سَكْرَى ، ومِنْ فِكَرٍ ، ومن أوهام

غنَّتْ ، كأسراب الطيور ، ورفرفت حولى ، وذابت كالدخان ، أمامى

ولَكَمْ أصَخْتُ إلى أناشيد الأسى ، وتنهُّدِ الآلام والأسقام

وإلى الرياح النائحات كأنها فى الغاب تبكى مَيِّتَ الأيام

وإلى الشبابِ ، مُغَنِّيًا ، مُتَرنِّمًا حولى ، بألحان الغرام الظامى

وسمعتُ للطير ، المغرِّد ، فى الفضا والسِّنديان ، الشامخ ، المتسامى

وإلى أناشيد الرعاة ، مُرَفْرِفَةً فى الغاب ، شادية كسرب يمام

وإلى الصدى ، المِمراح ، يهتف راقصًا بين الفجاج الفيح والآكام

حتى غَدَا قلبي كنأي ، مُتْرَعٍ ثَمِلٍ من الألحان والأنغام
فشدوتُ باللحن الغريب مُجنَّحًا بكآبةِ الأحلام والآلام
فى الغاب ، دنيا للخيال ، وللرؤى ، والشعرِ ، والتفكيرِ ، والأحلام
لله يومَ مضيتُ أولَ مرّةٍ للغاب ، أرزحُ تحت عبء سقامى
ودخلتُه وحدى ، وحولى موكبٌ هَزِجٌ ، من الأحلام والأوهام
ومشيتُ تحت ظِلاله مُتَهَيِّباً كالطفل ، فى صَمْتٍ ، وفى استسلام
أرنو إلى الأدْوَاحِ ، فى جبروتها فإخالها عَمَدَ السماء ، أمامى
قد مسَّها سِحْرُ الحياة ، فأورقَتْ وتمايلَتْ فى جَنَّةِ الأحلام
وأصيخُ للصَّمْتِ المفكر ، هاتفاً فى مسمعى بغرائب الأنغام
فإذا أنا فى نَشْوَةٍ شعريَّةٍ فيّاضةٍ بالوحى والإلهام
ومشاعرى فى يقظةٍ مسحورةٍ ! (١)
وسْنَى كيقظة آدم لمَّا سَرَى فى جسمه رُوحُ الحياة النامى
وشجَتْه موسيقى الوجودِ ، وعانقتْ أحلامَه ، فى رقّةٍ وسلام
ورأى الفراديسَ ، الأنيقةَ ، تنثنى فى مُتْرَفٍ الأزهار والأكمام
ورأى الملائكَ ، كالأشعّة فى الفضا ، تنسابُ سابحةً ، بغير نظام
وأحسَّ رُوحَ الكون تخفق حوله فى الظلِّ ، والأضواء ، والأنسام
والكائناتِ ، تحوطه بحنانها وبحُبِّها الرحبِ ، العميقِ ، الطامى
حتى تملأَ بالحياة كيانُه وسعَى وراء مواكبِ الأيام

(١) بياض بالأصل والمسودات .

وَلَرُبَّ صُبحٍ غائمٍ ، مُتحجّبٍ   في كِلَّةٍ من زَعزعٍ وغَمام
يتنفّسُ الدنيا ضبابًا ، هائمًا   مُتدفّقًا في أفقه المُترامي
والرِّيحُ تخفقُ في الفضاء ، وفي الثرى   وعلى الجبال الشُّمِّ ، والآكام
باكرْتُ فيه الغابَ مَوْهُونَ القُوَى   متخاذِلَ الخطوَاتِ والأقدام
وجلستُ تحتَ السنديانة ، واجمًا   أرنو إلى الأفق الكئيب ، أمامي
فأرى المبانيَ في الضباب ، كأنها   فِكَرٌ ، بأرض الشكِّ والإبهام
أو عالَمٌ ، ما زال يُولَدُ في فَضَاء   الكونِ ، بين غياهبٍ وسِدام
وأرى الفجاجَ الدامساتِ ، خلالَهُ   ومشاهدَ الوديان والآجام
فكأنها شُعَبُ الجحيم ، رهيبةً   ملفوفةً في غُبشةٍ وظَلام
صُوَرٌ ، من الفنِّ المُرَوِّعِ ، أعجزتْ   وَحْيَ القريضِ وريشةَ الرسام
ولكَمْ مساء ، حالمٍ متوشّحٍ   بالظل ، والضوءِ الحزين الدامي
قد سرتُ في غابي ، كفكرٍ ، هائمٍ   في نشوةِ الأحلام والإلهام
شَعَري ، وأفكاري ، وكُلُّ مشاعري   منشورةٌ للنُّور والأنسام
والأفقُ يزخر بالأشعةِ والشذَى   والأرضُ بالأعشاب والأكام
والغابُ ساجٍ ، والحياةُ مصيخةٌ   والأفقُ ، والشفقُ الجميلُ ، أمامي
وعروسُ أحلامي تُداعبُ عُودَها   فيَرِنُّ قلبي بالصَّدَى وعظامي
روحٌ أنا ، مسحورةٌ ، في عالمٍ   فوق الزمان الزاخرِ الدوّام

* * *

في الغابِ ، الغاب الحبيب ، وإنّه   حَرَمُ الطبيعةِ والجمالِ السامي
طَهَّرْتُ في نار الجمال مشاعري   ولقيتُ في دنيا الخيالِ سَلامي

ونَسِيتُ دنيا الناس ، فهى سخافةٌ	سَكْرَى من الأوهام والآثام !
وقَبستُ من عَطْفِ الوجود وحُبِّه	وجمالِه قبساً ، أضاء ظلامى
فرأيتُ ألوان الحياة نضــيرةً	كنضارة الزَّهَرِ الجميلِ النامى
ووجدتُ سِحْرَ الكون أسمى عنصراً	وأجلَّ من حزَنى ومن آلامى
فأهَبْتُ ـ مسحورَ الشاعر ، حالمًا	نشوانَ بالقلب الكئيب الدامي :
« العبدُ الحىُّ المقدَّسُ هاهنــا !	يا كاهنَ الأحزانِ والآلام
« فاخلعْ مُسوحَ الحزن تحت ظِلاله	والبسْ رداء الشــعر والأحلام »
« وارفعْ صَلاتَكَ للجمال ، عميقةً	مشــبوبةً بحرارة الإلهـام »
« واصدحْ بألحان الحياة ، جميلةً	كجمال هــذا العالَم البسَّــام »
« واخفقْ مع العِطْر المرفرفِ فى الفضا	وارقصْ مع الأضواء والأنسـام »
« ومع الينابيعِ الطليقةِ والصَّدَى ،	. . . . »[1]
ذَرَوْتَ أفــكارى الحزينةَ للدجى	ونثرْتُــها لعواصــفِ الأيام
ومضيتُ أشدُو للأشعَّةِ ساحراً	من صوت أحزانى ، و بطش سقامى
وهتفتُ : « ياروحَ الجمالِ تَدَفَّقِي	كالنَّهرِ فى فِــكرِى ، وفى أحلامى »
« وتغلغلى كالنور ، فى روحى التى	ذَبُلَتْ من الأحزان والآلام »
« أنتِ الشعورُ الحىُّ يزخر دافقاً كالنار ، فى روح الوجود النامى »	
« و يصوغ أحلام الطبيعةِ ، فاجعلى عُمْرِى نشيداً ، ساحِرَ الأنغام »	
« وشذاً يَضُوعُ مع الأشعَّة والرُّؤَى	فى معبد الحق الجليل السامى »

---

(١) ماض بالأصل والمسودات .

فلسفة الثعبان المقدس

فلسفة الثعبان المقدس هى فلسفة القوة المثقفة فى كل مكان . وكما تحدث الثعبان فى القطعة التالية إلى الشحرور بلغة الفلسفة المتصوفة حينما حاول أن يزين له الهلاك الذى أوقعه فيه ، فسماه « تضحية » وجعله السبيل الوحيد للخلود المقدس . . . .

كذلك تتحدث اليوم سياسة الغرب إلى الشعوب الضعيفة بلغة الشعر والأحلام حينما تحاول أن تسوغ طريقتها فى ابتلاعها والعمل لقتل ميزاتها القومية فتسميها : « سياسة الإدماج » وتتكلم عنها كالسبيل الوحيد الذى لامعدى عنه لهاته الشعوب إذا أرادت نيل حقوقها فى هذا العالم ، وبلوغ الكمال الإنسانى المنشود ، ولكن الفناء حقيقة شنيعة . مبغضة ، لاينقص من فظاعتها وكرهها كل مافى التصوف والفلسفة والشعر من خيال وأحلام » .

كان الربيعُ الحىُّ روحًا ، حالمـًا   غضَّ الشباب ، معطَّرَ الجلبابِ

يمشى على الدنيا ، بفكرة شاعرٍ   ويطوفها ، فى موكبٍ خلّابِ

والأُفقُ يملأه الحنانُ ، كأنّه   قلبُ الوجود المنتِجِ الوهّابِ

والكون من طُهرِ الحياة كأنما   هُوَ معبدٌ ، والغابُ كالمحرابِ

الشاعرُ الشحرورُ يرقص ، منشداً   للشمس ، فوقَ الوردِ والأعشابِ

شِعْرَ السعادة والسلام ، ونفسُه ... سَكْرَى بسِحْرِ العالَمِ الخلّابِ
ورآه ثعبانُ الجبـــال ، فغمَّه ... مافيه من مَرَحٍ ، وفَيْضِ شباب
وانقضَّ ، مُضْطَغِنًا ، كأنّه ... سوطُ القضـاء ، ولعنةُ الأرباب
بُغِتَ الشقيُّ ، فصاح في هول القضا ... متلفِّتًا للصـــائل المُنْتابِ
وتَدَفَّقَ المسكينُ يصرخ ثائرًا : ... « ماذا جنيتُ أنا لحق عقابي ! »
« لاشيء ، إلا أنني متغـــزلٌ ... بالـكائنات ، مغرِّدٌ في غابي »
« ألقى من الدنيا حنانًا طاهراً ... وأبثُّها نجوى المحبِّ الصـابي »
« أيُعَدُّ هذا في الوجود جريمةً ؟ ! ... أين العدالةُ يارفاقَ شبابي ؟ »
« لا [أين ؟] ، فالشرعُ المقدَّسُ هاهنا ... رَأْيُ القويِّ وفكرةُ الغلّاب ! »
« وسعادةُ الضعفاء جُرْمٌ . . ، ماله ... عند القويِّ سوى أشدِّ عقاب ! »
« ولتشهد الدنيـــا التي غَنَّيْتُها ... حلمَ الشباب، وروعةَ الإعجاب »
« إن السـلامَ حقيقةٌ ، مكذوبةٌ ... والعدلَ فلسفةُ اللهيب الخابي »
« لا عدلَ ، إلا إنْ تعادلت القُوَى ... وتَصَادَمَ الإرهابُ بالإرهاب »
فتَبَسَّمَ الثعبانُ بسمةَ هازىءٍ ... وأجاب في سَمْتٍ ، وفَرْطِ كِذَابِ :
« يأيها الغِـــرُّ المثرثر ، إنني ... أرثي لثـورة جهلك التلّاب »
« والغِرُّ يعذره الحكيمُ إذا طغى ... جهلُ الصِّبا في قلبه الوثّاب »
« فاكبحْ عواطفَكَ الجوامحَ ، إنها ... شردتْ بلُبِّكَ ، واستمعْ لخطابي »
« إني إلهٌ ، طالمَا عَبَدَ الورى ... ظلِّي ، وخافوا لعنتي وعقابي »
« وتقدَّموا لي بالضـــحايا منهمُ ... فرِحين ، شأنَ العابد الأوّاب »

« وسعادةُ النفسِ التقيّة أنّها يومًا تكونُ ضحيّة الأربابَ »
« فتصير فى رُوحِ الألوهةِ بضعة ، قُدُسِيَّةً ، خلّصتْ من الأوشاب »
« أفلا يسرُّكَ أنْ تكون ضحيّتى فتحُلّ فى لحمى وفى أعصابى »
« وتكونَ عزمًا فى دمى ، وتوهُّجًا فى ناظرَىَّ ، وحِدَّةً فى نابى »
« وتذوبَ فى رُوحِى التى لا تنتهى وتصيرَ بَعضَ ألوهتى وشبابى . . ؟ »
« إنِّى أردتُ لك الخلودَ مؤلّهًـــا فى روحىَ الباقى على الأحقاب..»
فكِّرْ ، لتدركَ ماأريدُ ، وإنّه أسمى من العيش القصير النابى »
« فأجابه الشحرورُ ، فى غُصَصِ الرَّدى والموتُ يخنقه : « إليكَ جوابى : »
« لارأْىَ للحقِّ الضعيفِ ، ولا صدَى ، والرَّأْىُ ، رأْىُ القاهرِ الغلاّب »
« فافعلْ مشيئتكَ التى قد شئتَها وارحمْ جلالكَ من سماع خطابى . . »

* * *

وكذاك تتخـــذ المظالمُ منطقًا عذبًا لتخفى سَـــوْءةَ الآراب

الفهرس

